دار يوليو للنشر

موجز تاريخ
مجتمعات ما قبل الرأسمالية

: ف . كيروف
تأليف : ى . روبريتسكى
: و . متروبولسكى

ترجمة: محمد يوسف النجدى

موجز تاريخ
مجتمعات ما قبل الرأسمالية

تقديم

عثرت مجموعة من العلماء اثناء قيامها باعمال الحفر فى وادى « أولدواى » فى تنجانيقا عام ١٩٦٠ على بقايا انسان من عصر ما قبل التاريخ عاش قبل ٦٠٠ الف عام مضت وبجواره بضع من الحجارة المشكلة تشكيلا بدائيا . وكانت هذه اول ادوات استخدمها الانسان . وكان الغرض من صنعها : مساعدته فى الحصول على طعامه ولحمايته من الوحوش .

وكان الانسان حتى ذلك الوقت — مع انه مسلح بمثل هذه الأدوات البدائية — عاجزا فى مواجهته قوى الطبيعة الجبارة ، يجوب الغابات اللانهائية بحثا عن الطعام ، حياته اقرب الى حياة الوحوش منها الى حياة الانسان المعاصر .

وكرت الأعوام والعصور وطوت الأزمان اجيالا لا حصر لها وتغيرت حياة الانسان . ثم ، وفى ١٢ أبريل ١٩٦١ وبالكاد بعد مرور عام على كشف برآدى أولدواى ، أطلق الاتحاد السوفيتى أول سفينة فضاء تحمل أول رائد فضاء فى التاريخ «يورى جاجارين» المواطن السوفيتى فى رحلته التاريخية حول كوكبنا مؤذنة بتحقيق نصر عظيم — الا وهو ارتياد الفضاء .

يا له من طريق طويل ذلك الذى اجتازه الانسان فى تطوره
ما هى المشاق التى واجهها ؟ كيف تطور المجتمع الانسانى بعد ا
خرج الانسان من المجتمع البدائى ؟

والتاريخ وهو العلم المختص بماضى وحاضر الانسانية يجيب عل
هذه الأسئلة .

ولكن كيف تعرف التاريخ على تلك الأحداث القديمة الت
جرت فى وقت لم تكن توجد فيه كتب ولا صحف ؟ ان أقدم « كتاب
يخبر المؤرخ عن الأيام الأولى للانسان هو الأرض نفسها . فحيث
كان الانسان يهجر موقعا عسكر فيه ، فان أمتعته وأدواته كان
تغطس تدريجيا فى طبقات من التربة — وهنا دور المؤرخ ، فه
يحفر التربة ويزيح بعناية طبقة بعد طبقة حتى يصل الى الصفح
الأولى فى تاريخ الانسانية ، فتحدثه عن أقدم العصور فى حيا
الانسان عن عصر تكوين المجتمع . وفى أغانى وأقاصيص الشعو
وجد كتابا رائعا آخر . فالشعوب فى أغانيها تحكى حياتها اليوم
وحالها وماضيها . ويتغير محتواها تدريجيا ، فالأحداث الجدي
تختلط بالأيام الماضية ، ومرة أخرى يصبح من واجب المؤرخ ا
يمحص الوصف الصادق للماضى فى المادة الفولكلورية ويقرأ
صفحاتها تاريخ الانسان . وفى زمن متأخر تعلم الانسان الكتابة
أولا على الحجر ثم على الواح من الطين ، وأخيرا على الورق
وكثيرا ما كانت هذه الكتابات وصفا لأحداث مضت ، أو لحياة مختل
الشعوب أو للشرائع التى كانت قائمة فى تلك الأزمنة السحيقة
وكل هذه الاكتشافات زودت التاريخ بمادة ومرة لاعادة بنا
طريقة حياة الانسان القديمة بشكل موثوق به .

ولكن بماذا يخبرنا العلم عن أصل الانسان ؟ كيف يفسر تكو

المجتمع الانسانى ؟ لقد تنبه العلماء الى التشابه القوى بين الانسان والحيوانات وبصفة خاصة القردة العليا . وقد اثبت تشارلز داروين عالم التاريخ الطبيعى الانجليزى العظيم ، ان الانسان والأنواع المختلفة من القردة العليا (الشامبانزى ، الجوريلا ، الأورنج اوتانج والجيبون) ، يشتركون فى اشياء كثيرة فيما يتعلق بتركيب الجسم والهيكل والأعضاء الداخلية ، وتطور الجنين ، الخ. وهذا يثبت العلاقة البيولوجية بين الانسان والحيوانات الراقية . يمع ذلك فقد اثبتت اكتشافات بقايا حفريات القردة العليا التى انقرضت منذ زمن بعيد ان الانسان اكثر قربا من تلك الأنواع القديمة المنقرضة منه الى القردة العليا التى تعيش حاليا . وقد ثبت هذا ان الانسان قد تطور من قردة متطورة تطورا كبيرا هى سلاف كل من الانسان والقردة العليا الحالية .

ومنذ اكثر من ثلاثين مليونا من السنين كانت القردة العليا القديمة تسكن الغابات الاستوائية فى كوكبنا . وعلى مر الالوف من السنين لاءم اجدادها بطرق مختلفة بين انفسهم وبين الظروف المحيطة بهم . ومع أن غالبية هذه القردة العليا واصلت حياتها الحيوانية الا أن اسلاف الانسان اتبعوا طريقا مختلفا . فبتلاؤمهم مع بيئتهم تعلموا شيئا فشيئا المشى منتصبى القامة ، واتاح هذا لأطرافهم الأمامية ان تبقى حرة لتقوم بأنواع اخرى من النشاط . وبتطور اطرافه الأمامية اخذ الانسان القرد (مسترشدا بغريزته الحيوانية) فى استخدام الأشياء الطبيعية كالعصى والحجارة ، اسلحة للدفاع والهجوم . وشيئا فشيئا تعلم استخدام هذه الأشياء كأدوات للحصول على الطعام : للصيد والحفر عن الجذور التى تؤكل . وقد ساعده الاستخدام المنتظم للأحجار والعصى على تطوير جسمه وبالذات يديه .

ثم بدأ الانسان فى اختيار الأحجار الأكثر ملاءمة لأغراضه وفيما بعد تعلم كيف يشكلها بخبط حجر فى آخر وكيف يسنها وكيف يبرى الصوان بالحجم والشكل المطلوب ثم يصقلها . وهكذا تعلم أسلاف الانسان كيف ينتجون أدواتهم الأولى للحصول على الطعام

وليس لدى الحيوانات ، حتى أكثرها رقيا ، القدرة على صنع أبسط الأدوات ، ان العمل وصناعة الأدوات هى التى تميز الانسان عن دنيا الحيوان . ولقد كان العمل بأوجهه المختلفة هو الذى قاد أسلاف الانسان والقردة العليا على دروب مختلفة من التطور فالقردة العليا واصلت طريقة حياتها الحيوانية وليست لديها القدرة الا على الملاءمة السلبية للطبيعة . وبالعكس فالانسان بولوجه درب العمل ، ومن ثم التقدم الاجتماعى يتقدم فى الكفاح ضد قوى الطبيعة ويغيرها حسب غايته ويجعلها شيئا فشيئا فى خدمة أغراضه .

وعلى هذا فان التطور الانسانى بيولوجيا منحه ملكات للعمل والعمل بدوره حفز تطورا أكبر فى جسم الانسان . وكان تأثير الأكبر على اليد التى اكتسبت خلال تطور الانسان مرونة ومهارة أكبر ، وقد زودته الأدوات بدورها بغذاء نباتى وحيوانى أكبر . وقد أسهم التحول للغذاء الحيوانى فى تطور أكبر للجسم الانسانى وخاصة المخ . على أن العمل هو الذى لعب الدور الحاسم فى تطور المخ الانسانى . وقد وجه النشاط الانسانى انتباهه الى خواص الأشياء الطبيعية المحيطة ، فكون أفكارا عامة عن بيئته واختبرها فى التطبيق وبهذا توصل الى اكتشاف العلاقات بين الأشياء والظواهر المختلفة . ويمكننا ان نفترض أن الانسان القديم قد لاحظ أن أنواعا معينة من الحجارة قابلة للانفلاق الى صوان ويمكن تشكيلها بسهولة الى مكاشط وسكاكين حجرية وذلك خلال قيامه بصنع أدواته الحجرية الأولى . وعلى هذا فمن طريق العمل تطور مخ الانسان وأصبح التفكير ممكنا وذا هدف ، ومكنه ذلك من التنبؤ بنتائج عمله .

واكتسب نشاطه الغريزى اللاواعى صفة ارادية وواعية ، وعلى هـذا فقد دفع الانسان الى تطوير المخ وبالمثل اثر نمو قـدرات الانسان الذهنية على تطور نشاطه العملى .

ولا يمكن تصور العمل الانسانى منعزلا ، فقد كون النـاس جماعات للعمل المشترك مما جعل من الضرورى وبالنسـبة لهم الاتصال بعضهم ببعض . ومن ثم ادى العمل الانسانى الى ظهور وتطور النطق — وسيلة للتعبير عن الأفكار . ولقـد تطور النطق الانسانى من تلك الأصوات المدغومة التى تصدر عن الحيوانات فى مواجهة الخطر . والنطق الانسـانى ليس اغنى الف مرة فى تنوع الأصوات فحسب ، بل انه ومنذ نشأته الأولى كان يعكس النشاط الواعى لا الغريزى .

لقـد تطور النطق الانسانى خلال عمل الانسان واكتسب صفة الوضوح والمفاصل ومكنه من التعبير عن افكاره وخططه . ولقـد كان النطق ذو اهمية فى تطور المجتمع الانسانى ، اذ انه وحـد بين عدد من الناس أثناء العمل ومكن من تنظيم العمل الجماعى . وبذا اغتنت المهـارة الانسانية واتسعت .

ومن هنـا فان العمل الانسـانى كان العامل الأساسى فى تطور البشـرية . وكان أول من لاحظ وبحث فى الدور الذى لعبه العمل فى تطور الانسـان هما العالمـان الفذان وقائدا الطبقة العاملة ، كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) ، وفردريك انجلز (١٨٢٠ — ١٨٩٥) ، اللذان اعطيا وزنا كبيرا لدور العمل النشيط فى تطور الانسان ووضعا له هذه الصياغة « ان العمل هو خالق الانسـان نفسـه » .

مرت القرون ، وقد قرب العمـــل ما بين الناس ولكن المعرفة بأصل الانسان لم تحدثنا بشيء عن قرون من عمر تطور الانسان . ما هو العامل الأساسى فى التطور الاجتماعى ؟ ما هى القوة الدافعة له ؟ مم يتكون اساس المجتمع الانسانى ؟ انه يبحث هـــذه المسائل يصبح من الممكن فهم تاريخ الانسانية .

فمن أجل الحفاظ على وجوده يحتاج الانسان الى مواد أساسية معينة : المـــأكل ، والملبس ، والمـــأوى ، الخ .. والحيوانات لا يمكنها الا استخدام ما توفره الطبيعـــة من مواد . فهى تجمع الحشـــائش والثمار وتصطاد الحيوانات الأخـــرى ، والطيور ، والأسماك ، والحشرات . ولكنها تحصل على هذه القيم المـــادية ، فقط ، بالقدرة الذى يسمح لهـــا به تطورها الطبيعى . فلا يستطيع اى حيوان أن يصطاد طائرا مختلفا مهما بلغ به الجوع . اما الانسان فمختلف عن هذا . فبصنعه للأدوات ، واستخدام المواد الطبيعية ، والقوى الطبيعية ، خلق الانسان بنفسه المواد الضرورية لحياته . فباستخدام عصى بسيطة أمكن للانسان أن يستخرج الجذور التى لم يكن يستطيع الوصول اليها بغير هذه الطريقة . ومكنته بعض الأدوات الحجرية من قتل الوحوش الكبيرة . وفيما بعد مكنه اختراع القوس والسهم ، والحربة والنبلة من اصطياد الحيوانات عن بعد وكذلك اصطياد طائر محلق ، ولم يكن ذلك ممكنا أبدا ما لم يكن الانسان قد صنع بنفسه الأدوات الضرورية . وقد أعطته تطور الزراعة وتربية الماشية وما تلاهما من انتاج بضائع مادية أخرى ، أعطته وسائل اعاشة اضافية ، وادت الى زيادة فى القيم المـــادية بشـــكل عام . ومع هذا ، فان العمـــل الانسانى لم يؤدى الى الحصول على عدد أكبر من المواد التى تتيحها الطبيعة فحسب ، بل انه خلق مواد جديدة ، لا توجد فى شكلها النهائى فى الطبيعة . وقد سلخ انسان ما قبل التاريخ الحيوانات التى قتلهـــا ليصنع

ملابس تحميه من الطقس . وبالاستعانة بالأدوات بنى له مأوى واليوم أصبح فى قدرة الانسان أن يخلق عديدا من المواد لا توجد ولم يسبق لها أن وجدت فى الطبيعة .

وطالما أن الانسان لا يمكنه أن يعيش بدون البضائع المادية التى يخلقها بنفسه ، فقد أصبح انتاج هذه البضائع أساس الوجود الانسانى .

وبما أن تطور الانسان يتطلب زيادة مستمرة فى المواد ، فان انتاجها يجب أن يتزايد باستمرار ويتحسن . وبالاضافة الى ذلك فان تقدم الانتاج المادى لا يتوقف على ارادة الانسان ورغبته ، اذ أنه نتيجة للتطور الموضوعى ، نتيجة لقانون الحياة الاجتماعية .

كيف يتطور انتاج الثروة المادية ، التى هى اساس حياة المجتمع ؟ ان الانتاج يحتاج الى مواد ـ أدوات العمل ، والوسائل التى عن طريقها يعمل الانسان على أدوات العمل ـ وسائل العمل . والانتاج يتطلب أولا وقبل كل شىء آخر ، أدوات الانتاج ، أى ، تلك الأدوات التى استخدمها الانسان ولا يزال يستخدمها لنشاطه العملى ، ابتداء من أدوات الانسان البدائى الحجرية الخشنة الى الماكينات الحديثة المعقدة . ولكن مع ذلك فان وسائل وأدوات العمل التى تكون وسائل الانتاج ، لا تنتج المواد بنفسها . فالجزء الأساسى فى عملية الانتاج يقوم به البشر ، الناس العاملون الذين لديهم القدرة على خلق واستعمال هذه الأدوات بما يملكون من مهارات وخبرات معينة .

وتكون وسائل الانتاج التى يخلقها المجتمع بالاضافة الى الشعب

العامل ، القوى الانتاجية للمجتمع ، والشعب العامل هو القوة الانتاجية الحاسمة التى بدونها تصبح وسائل الانتاج ميتة لا حياة فيهـا .

ويبدأ تطور الانتاج المـادى بتغيرات فى القوى المنتجة التى تتعلق أول ما تتعلق بتطور أدوات الانتاج التى يتزايد اتقانها وملاءمتها لعمليات الانتاج المختلفة باستمرار . والتحسين المستمر فى هـذه الأدوات هو أساس التطور الاجتماعى ويجعل الانسان اقل اعتمادا على قوى الطبيعة . ويحدد مستوى تطور أدوات الانتاج درجـة سيطرة الانسان على قوى الطبيعة . فبالفأس الحجرى البدائى استطاع الانسان أن يطهر شريطا من الأرض من النباتات ولكن ليس غابة . ولم يصبح تطهير الغابات ممكنا الا بظهور فأس متقـدمة ذات يد من خشب . واصبحت الفأس الحجرية ذات اليد الخشبية الطويلة طوريه (جروفا) تستخدم فى عزق الحقول . وقد مكن تطور الفـأس الحجرى ــ الانسان من توسيع رقعة محاصيله الغذائية وادى الى تغييرات عميقة فى كل مناحى حياته . بل وقد احدث تطور الزراعة تغييرات اكبر فى حياة المجتمع . وقد ادخلت الصناعة الحديثة تغييرات جذرية فى حياة معاصرينا بحيث قللت كثيـرا فشيئا من الأخطـار التى كان يسببها ضعف المحـاصيل والكوارث الطبيعية الأخرى .

وعلى هـذا فان الحقب الاجتماعية المختلفة تحدد طبيعتهـا أولا وقبل كل شىء ، أدوات العمل المستخدمة فى انتاج الثروة المادية . ولكى يكون لدينـا فهم سليم للتطور الاجتماعى فانه من الضرورى أولا أن نحلل عنصره الأساسى الا وهو تطور انتاج القيم المـادية . ومن الضرورى البحث والتدقيق فى الأدوات المستخدمة فى الانتاج والمعرفة والمهارة لدى الناس الذين خلقوا القيم المـادية ، أى مستوى تطور القوى الانتاجية للمجتمع .

ولكن كما سبق أن قلنـــا فمن أجل أن ينتجوا ، يجب أن يساهم الناس فى عمل جماعى . والعلاقات التى تنشـــأ بين الناس من خلال عملية الانتاج تعرف بالعلاقات الانتاجية ، وهى تشمـــل علاقات الناس المتبادلة فى انتاج القيم المادية (المجهودات المشتركة ، تقسيم العمل ، المساعدة المتبادلة .. الخ .) والأشكال المختلفة لتوزيع القيم المنتجة (التوزيع المتساوى ، التوزيع طبقا للعمـــل المبذول .. الخ .) وما هو أكثر اهمية ، الأشكال المختلفة لملكية وسائل الانتاج (الملكية الجماعية ، الملكية الخاصة) . ومسألة ملكية وسائل الانتاج هى المسألة الرئيسية فى العلاقات الانتاجية ، لأنهـــا هى التى تحدد علاقات الناس فى عملية الانتاج وأشـــكال توزيع القيم المنتجة . وعلى هـــذا ففى ظل الملكية الجماعية لوسائل الانتاج يساهم الناس بقسط متساوى فى العمل ويحصل كل واحد على نصيبه من القيم المـــادية . وفى ظل الملكية الخاصة لوسائل الانتاج لا يكون المالك مضطرا للعمل بنفسه بينما الناس المحرومون من هـــذه الملكية يجبرون على العمل لصالحه وهو يستحوذ على الجزء الأكبر من القيم المـــادية المنتجة .

وعلى هـــذا فشكل ملكية أدوات ووسائل الانتاج هو العامل الأساسى فى تحديد كافة سمات العلاقات الانتاجية والموضـــع الذى تشغله المجموعات الانتاجية المختلفة فى عملية الانتاج وفى علاقاتها ، والعلاقات الانتاجية كما سيوضح هـــذا الكتاب تتحـــدد بمستوى تطور القوى المنتجة .

وكل جيل جديد يجد مستوى معينا من تطور قوى الانتـــاج قائما وموجودا بالفعل . وتطور طريقة الانتاج ، أى مستوى تطور القوى المنتجة وسمات العلاقات الانتاجية ، ككل توجد مستقلة عن وعى الانسان وتتبع قوانين موضوعية للتطور .

والعلاقات الانتاجية ، أو البناء الاقتصادى للمجتمع ، يشكل الأساس للحياة الروحية للمجتمع ، اساس كل الأفكار والنظريات الاجتماعية ، والعلاقات الأيديولوجية ، والأنظمة السياسية والقانونية والثقافية ، وهى جميعا تشكل البناء الفوقى للمجتمع المقام فوق ذلك الأساس . والعناصر المختلفة للبناء الفوقى يحددها بناء اقتصادى معين للمجتمع ، وهى بدورها تؤثر فى تطور العلاقات الانتاجية اما بدفع أو تعويق تقدمها . وعلى هذا فان سياسة قديرة تأخذ فى اعتبارها احتياجات الاقتصاد تعجل بتطوره. فالنضال من أجل السلام تؤمن الأمم الحديثة الناهضة فى أفريقيا أكثر الظروف ملاءمة لنموها الاقتصادى وتحشد قوى المجتمع لتنمى القوى الانتاجية وبهذا تدفع نمو دعاماتها الاقتصادية جنبا الى جنب مع كل مناحى حياة مجتمعها . وفى الوقت نفسه فان سياسة الحرب يمكن أن تجلب تدميرا لكل القيم المادية ، للمجتمع وكل قواه الانتاجية . وهذا يعوق نمو البناء الاقتصادى للمجتمع ويضعف اقتصاد هذه البلدان بل وربما أدى الى استبعادها.

وعلى هذا ففى دراسة تاريخ المجتمع الانسانى يجب على الانسان ألا يكتفى بدراسة البناء الاقتصادى للمجتمع بل عليه ايضا دراسة بنائه الفوقى . وهذا المنهج فى دراسة تاريخ المجتمع الانسانى يعرف بالمفهوم المادى للتاريخ . وكان أول من صاغاه وأعطياه اساسا علميا هما كارل ماركس وفردريك انجلز ، وقد اثبت صحته كل تاريخ الانسانية بأكمله . وفيما بعد تطور المفهوم المادى للتاريخ فى مؤلفات القائد المبرز للشعب العامل ومؤسس الدولة السوفيتية فلاديمير ايليتش لينين (١٨٧٠ — ١٩٢٤) .

والمفهوم المادى للتاريخ ينظر الى تاريخ الانسان كتطور وتتابع انماط تاريخية معينة من المجتمع (لها اسلوب انتاج وبناء فوقى

ذو سمات معينة) ، تعرف بالتكوينات الاقتصادية الاجتماعية . وقد ثبت علميا ان الانسانية ككل قد مرت بالتكوينات الاقتصادية الاجتماعية التالية :

المشاعية البدائية ، العبودية ، الاقطاعية ، والرأسمالية ، وهى تعيش الآن حقبة انتقالية مؤدية الى التكوين التالى ، التكوين الشيوعى وأول اطواره هو ما يسمى بالاشتراكية . وتطور وتتابع التكوينات الاقتصادية والاجتماعية قانون موضوعى من قوانين تطور المجتمع سارى المفعول منذ ظهور الانسانية وتكون المجتمع .

وهذا الكتاب وبشكل موجز جدا يشرح تطور التكوينات الاقتصادية والاجتماعية الأولى : المشاعية البدائية والعبودية والاقطاع .

الفصل الأول

المجتمع البدائى

١ ــ تكوين المجتمع البدائى

تطور القوى الانتاجية فى مجتمع ما قبل التاريخ :

خرج الانسان من الحياة الحيوانية من نحو مليون سنة خلت بخلقه واستخدامه أدوات عمله الأولى. ومثل كل الحيوانات الأخرى كان انسان ما قبل التاريخ تحت رحمة البيئة الطبيعية الجبارة ولم يكن ليختلف أسلوب حياته الا قليلا عن أسلوب حياة الوحوش . فكان هناك حشود من أسلافنا متجمعة تجوب الغابات ووديان الأنهار بحثا عن الطعام وتجمع كل ما يمكن تناوله من الجذور والثمار والحيوانات البطيئة الحركة بل والجيف . وفى مثل تلك الأزمنة السحيقة لم يكن لدى الانسان ادنى فكرة عن كيف يصنع محلا يأويه . فكل الحيوانات يبحث عن الملجأ الذى يحميه من الأعداء ومن ظروف الطقس غير الملائمة بين أوراق الأشجار الكثيفة وفى شقوق الصخور والكهوف .

وبالرغم من كل هذا فقد كان الانسان يملك مواهب ميزته عن جميع الكائنات الحية الأخرى ، ذلك انه كان قد بدأ فى انتاج أدوات يمكن استخدامها فى أغراض شتى : مثل تحطيم درنة سلحفاة أو كسر عظمة أو تقشير بندقة . وكان اكثر هذه الأدوات بدائية

ازاميل حجرية أو فؤوس بدائية بلا مقابض أو ايدى . وقد تمكن الانسان بكسر ثم صقل الأحجار من أن ينتج أداة ثقيلة وجبارة يصل وزنهـا الى حوالى كيلو جرام لها حرف قاطع حاد من ناحيـة وجزء أملس من الناحية الأخرى للامساك بهـا . وبهـذه الأداة أمكن للانسان أن يقتل الحيوانات الصغيرة ويستخرج الجذور التى تؤكل . كمـا كان فى مكنته استخدامها كسلاح فى مواجهة الوحوش المفترسة الكبيرة أو فى مهاجمة الحيوانات الكبيرة ليزود نفسه بغذاء حيوانى أكثر غناء .

وبالاضافة الى الفؤوس البدائية استخدم الانسان القديم أيضـا أدوات مصـنوعة من الخشب : عصى للحفر مسنونة بالحجر ، حراب الخ ..

وفى زمن متأخر كثيرا من حوالى ٥٠٠ ـ ٣٠٠ الف عام مضت استطاع الانسان أن ينتج ادوات خاصـة لأغراض مختلفـة مثل الضرب ، والقطع ، والحفر ، وسـلخ الحيوانات الخ .. وكان يلزم التوصل لمهارة كبيرة لانتاج مثل هـذه الأدوات ، ولكنها بدورها سهلت عمل الانسان ورفعت من انتاجيته .

وقد تمكن الانسان بصنعه أدوات خاصة تستطيع انزال ضربات قوية ، من أن يشن نضـالا أكثر فعاليـة ضـد عـالم الحيوان المحيط به . وهذا أدى تدريجيا الى ظهور الصـيد الذى بدأ يلعب دورا متزايد الأهمية فى حياة الانسان البدائى . فبدأ يستقر بجوار أماكن الشرب ودروب الحيـوانات حيث يمكن الحصول بسهولة على الغذاء الحيوانى .

وفى بعض الأحيان ادت ظروف الصيد المتحسنة الى منع العشيرة من الهجرة وجعلت الانسان يكيف مأواه المؤقت ليصبح مقرا لمـدة

قد تطول أو تقصر . وهذا أدى الى ظهور مواقع المعسكرات الأولى التى بناها الانسان . وكانت تتكون من مصادات للرياح مصنوعة من الأغصان والحجارة ومن كهوف أعدت للسكن .

وفى وقت متأخر نسبيا وقع حدث هام آخر فى حياة الانسان القديم : لقد تعلم استخدام النار . فعلى مدى آلاف من السنين كانت النار التى ترهبها كل الكائنات الحية تملأ الانسان بالرعب . وشيئا فشيئا اصبحت صديقة له ، وكان الانسان لعدم معرفته بكيفية اشعال النار ، يحمل الاغصان الملتهبة أو الفحومات المدخنة المتبقية عن حرائق الغابات الى مسكنه . فكانت تحميه من البرد كما كانت تبعد عنه الحيوانات المفترسة التى تفزعها النيران . وباستخدام النار استطاع أن ينتج أدوات متعددة مثل عصى الحفر التى سنها وجففها بالنار . ولكن ربما كانت الأهمية العظمى للنار هى استخدامها فى الطريقة الجديدة لاعداد الطعام . فقد بدأ الانسان بشواء طعامه وتحميصه وأخيرا سلقه ، وهذا زوده بغذاء افضل خاصة من اللحم مما ساهم فى تطور مخه .

لقد أحدث صنع الأدوات واستخدام النار تغييرا له وزنه فى أسلوب حياة انسان ما قبل التاريخ ، ذلك أن العمل تطلب نشوء علاقات اجتماعية جديدة . فقد افسحت الغريزة الحيوانية الطريق شيئا فشيئا أمام نوع جديد من العلاقة المبنية على الدور الذى يقوم به الانسان فى الانتاج المادى .

تطور العلاقات الانتاجية :

كان الانسان مثل معظم الحيوانات ، يعيش فى جماعات منذ المراحل الأولى لتطوره . ولم يستمر الانسان فى تطوير هذا النمط

من اسلوب الحياة الجماعى عندما بدأ استخدام الأدوات لأول مرة، فحسب ، بل طوره الى أرقى ، فلم يكن فى مقـــدور الانسان أن يعيش منفردا وأن يزود نفســـه بالطعام وأن يحمى نفســـه من الحيوانات المتوحشة ويجد لنفسه ملجأ من الظروف الجبارة المحيطة به ، بمثل تلك الأدوات البدائية للغاية . فقد اتحد الناس ليحصلوا على الوسائل الضرورية لمعاشهم ومع ذلك فقد كانت تلك الروابط الجـديدة للعمل ضعيفة الى حد ما فى البـداية . وكانت الغرائز الحيوانية سائدة ، ولكنه ، بالتدرج فى تطور العمل أمكن أن تتحول تلك التجمعات أو بالأحرى تلك الحشود المتباعدة الى جماعات دائمة مؤسسة على العمل المشترك (الصيد المشترك ، صيد السمك الخ) .

وقد كان العمل الجماعى شرطا لا غنى عنـه فى كافة عمليات الانتاج فى تلك الأزمنة حين كان هدف الانســـان الأســـاسى هو حصوله على الطعام . وبتطور قوى الانتاج اختفت تدريجيا الحاجة الى العمل الجماعى للمجتمع ككل . وكان تقسيم العمل تبعا للجنس والسن مجرد تطور طبيعى ساعد عليه ظهور أدوات جديدة للعمل وتزويد الكوميون باللحم والجلود الخ ، بينما النساء والأطفال كانوا يجمعون الطعام ويصيدون السمك ويرعون العيال ويربون الأجيال الجديدة . ونتج عن هـــذا التقسيم للعمل زيادة الاعتماد المتبادل بين أفراد العشيرة التى كان يجمعها أصل مشـــترك واقتصاد مشترك وحولها الى مجتمع عشائرى مستقر نسبيا أو عشيرة مؤسســة على العلاقات الانتاجيـــة .

وقد تطلب الانخفاض الشديد فى مستوى تطور القوى الانتاجية وانتاجية العمل المنخفضة ، تطلبا أن يساهم كل فرد فى العشيرة فى انتاج الثروة المـادية بكافة أدوات ووســـائل الانتاج بصفتها ملكيتهم العـــامة . وبما أن الأدوات كانت ملكية عامة فكل شىء

ينتج مشتركا اصبح ملكا مشتركا وقسم بالتساوى بين افراد العشيرة . وعلى هذا كانت الملكية العامة هى النوع الوحيد من الملكية الذى وجد فى مجتمع العشيرة فى ذلك الوقت . فلم يكن عدم المساواة فى الملكية معروفا ، وتمتع جميع الأفراد بحقوق متساوية. وكان نفوذ أى فرد فى العشيرة يتوقف على المركز الذى يشغله فى حياة العشيرة ، اى فى عملياتها الانتاجية . وكان الاعتبار الأول يعطى لخبرته ومهارته وقوته الخ . وكان الزعيم الذى يختار للصيد او للأغراض الأخرى المشتركة يختار من بين الأفراد الأكثر تجربة واحتراما وتدين له بالسلطة العشيرة كلها .

وبتقسيم العمل بدات المراة تلعب الدور الرئيسى فى المجتمع . فصناعتها المنزلية خلقت وسائل للعيش اكثر انتظاما ويمكن الركون اليها من مهنة الصيد عند الرجال . وبالاضافة الى ذلك كانت الأم هى سيدة المجتمع وكانت تعتبر ربة العشيرة كلها . وكانت تحصل على وسائل المعيشة الضرورية وتربى الأجيال الجديدة . وعلى هذا فقد نمى نفوذها ودورها فى مجتمع العشيرة البدائى بثبات ، وتعرف مثل هذه المجتمعات بالعشيرة الأموية .

نشاة النوع الحديث من الانسان :

منذ اكثر من ٦٠ الف سنة مضت ، طورت عوامل مثل العمل ، والكلام ، والحياة الاجتماعية ، طورت الانسان بيولوجيا الى الحد الذى يصعب فيه التمييز فى بنيانه التشريحى والشكل الخارجى بينه وبين الانسان المعاصر ، وقد سمى علميا « هوموسابينز » .

وقد وضع ظهور هوموسابينز — حدا لتطور الانسان بيولوجيا وفتح امامه آفاقا فسيحة لنمو العلاقات الاجتماعية والثقافية المادية والروحية . وقد امكن للانسان التوصل الى نتائج بارزة

فى هـذا الصدد ، ويمكن ملاحظـة التقـدم فى التطور الاجتماعى للانسان مع كل يوم يمر .

وفى ذلك الزمن استوطن ما يسمى بالانسان الحديث فى أوروبا وآسيا وافريقيا . وبعد ذلك بما يقرب من ١٥ الى ٣٠ الف سنة مضت وصل الانسان الى القارة الأمريكية عن طريق مضيق بهرنج . وبالرغم من المشاق الهائلة التى واجهتهم اثناء هذه الهجرة مثل العزلة عن الشعوب الأخرى وعدم وجود حيوانات قابلة للاستئناس فان الهنود الحمر وهم سكان امريكا الأولون انتشروا فى القـارة كلهـا ، وكانوا اول من زرع بعض النباتات الغذائية الهامة مثل الذرة والبطاطس . ومع ذلك فان شتى الصعوبات التى أعاقت بالهنود الحمر اعاقت تطورهم الاجتماعى . وبعد ذلك بعدة قرون كاد المستعمرون الأوروبيون أن يقضوا عليهم كليـة . وفى نفس الوقت تقريبا من حوالى ١٠ آلاف سنة مضت بدأ الانسان استيطان استراليا . ولكن ظروفا اكثر جبروتا مما واجهت الهنود الأمريكيين عطلت تطور القبائل الاسترالية . ومع أن النتائج التى توصـل اليها الاستراليون رغم ذلك تستحق الثنـاء فان هـذا لم يمنع استعماريو القرن التاسع عشر من ابادة العديد من قبائل القارة الأصليين بلا رأفة .

ولقد وضع استيطان الانسان لمناطق جديدة ، وضعه فى مواجهة ظروف جغرافية متنوعة . فقد عاشت بعض الشعوب فى الغابات الاستوائية الرطبة وشعوب أخرى تحت اشعة الشمس اللافحة فى الصحارى أو بين ثلوج الشمال بينما لم تعرف شعوب أخرى الا الطقس المعتدل . وعلى هـذا تكونت أجناس انسانية مختلفة تشمل أنماطا من الشعوب تميزها عن بعضها البعض عدد من المظاهر

الثانوية التافهة (لون الجلد ، شكل الأنف ، الشفاه ، العيون ، الشعر الخ.) . وكان لعزلة الشعوب المختلفة وحياتها تحت ظروف مناخية مختلفة أثر ملحوظ على تكوين الأجناس . وقد تكونت السمات العرقية (الجنسية) المميزة خلال الفترة التى تلت نشأة الانسان الحديث وليس لها تأثير من أى نوع كان على الكائن الانسانى .

فكل المخلوقات الانسانية من أصل واحد . والناس من كل الأجناس متساوون فى قدراتهم الجسمانية والعقلية والروحية . وكما سبق أن قررنا فان الملامح العرقية نشأت نتيجة الملاءمة التى استغرقت زمنا طويلا بين الكائن الانسانى وبين الظروف الطبيعية المعاكسة . وبما أن الانسان أصبح الآن مستقرا بيولوجيا فلم يعد فى امكانه أن يلائم نفسه مع بيئته عن طريق تغييرات بيولوجية لاحقة . وقد تعلم أن يلائم نفسه مع بيئته بخلق وسائل متعددة للحماية من مختلف الظروف الجوية المعاكسة فيحمى الانسان رأسه فى المناطق الاستوائية من شدة الحرارة بارتداء خوذة الخ) .

ومن أجل تبرير سياسة القمع الاستعمارية اخترع الامبرياليون عددا من النظريات غير العلمية مؤداها أن تفوق الجنس (الأبيض) على الشعوب (الملونة) مقرر سلفا ، وان التمييز العنصرى هو مفتاح انحطاط وتخلف الشعوب التى تقطن افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية . لقد أوضحنا فيما سبق أن الشعوب من كافة الأجناس متكافئة بيولوجيا . وتخلف شعب تقرره المظاهر المعينة لتطوره التاريخى . وقد أعطى التاريخ نفسه براهين كافية على أن جميع الشعوب كان لها مستوى مرتفع من الثقافة وكانت تعمل على تطويرها قبل حلول الاستعماريين . ولقد كانت سياسة الامبرياليين الأوروبيين والأمريكيين الاستعمارية الى لا ترحم هى التى أوقفت

تطور شعوب افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية لفترة طويلة وحطمت كل منجزاتها واحتجزت أكثر ممتلكاتها كمناطق شبه مستعمرة وكثيرا ما أبادت شعوبا بأكملها . ولقد دحضت النجاحات الهائلة لشعوب كثيرة من افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية التى القت عن كاهلها النير الاستعمارى وسارت فى طريق الاستقلال ، دحضت مرة أخرى كافة النظريات العنصرية . ويلجأ الامبرياليون لهذه « النظريات » لابعاد الشعوب عن بعضها ولكى يمنعوا نضالهم المشترك من أجل السلام وضد أخطار حرب ذرية . وهم يستخدمون هذه «النظريات» لتقويض وحدة حركة العمال الدولية ولزرع بذور العداوة والبغضاء بين العمال من « الجنس الأبيض » والشعوب « الملونة » واضعين حركة تحرير شعوب افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فى تضاد مع نضال البروليتاريا الأوروبية وبالخصوص فى تضاد مع نضال شعوب المعسكر الاشتراكى ضد الامبريالية . وهذه هى الأسباب الحقيقية فى التمييز العنصرى الامبريالى ضد الجنس الزنجى وما يروجونه لما يسمى بنظرياتهم عن الطريق الخاص بتطور الشعوب «الملونة».

وبدون اى اساس علمى مثل كل « النظريات » العنصرية ، لا تخدم هذه « النظريات » الا القوى الرجعية التى تعارض التطور التقدمى لجميع الشعوب وتقف ضد حرياتها الحقيقية واستقلالها .

٢ ــ العصر الذهبى للمجتمع البدائى

استمرار تطور القوى الانتاجية للنظام المشاعى البدائى :

أدى استمرار تطور الأدوات الحجرية والانجازات الأخرى فى تطور القوى الانتاجية الى تقدم المجتمع الانسانى . وقد بدأ الانسان تشكيل أدواته الحجرية بخبطها بعضها ببعض ثم تعلم بعد ذلك كيف يبرى قطع الصوان الحادة ويركب لها مقابض خشبية .

فيما بعد أخذ فى صقل وتجليخ الأحجار وصنع رؤوس الحرابه صوانية والسكاكين ، والمناجل والعدد القاطعة الأخرى . وقد نفعت كل هذه الابتكارات من انتاجية الانسان .

وكان اختراع القوس والسهم أحد الاختراعات الهامة لذلك العصر مما جعل الصيد واحدا من أهم الحرف الاقتصادية لمدى طويل . ولم يزود هذا النشاط ، الانسان بغذاء حيوانى فحسب ، بل زوده بالجلود التى صنع منها ملابسه واكثر من ذلك صنع منها مسكنا له ، ومن قرونها وعظامها صنع ادواته ، وقد تطور الصيد خطوة خطوة مع صيد السمك الذى حفز بدوره مهارات وعادات جديدة . وبتطور انتاجية العمل تخلى الانسان عن حرفة جمع الطعام وتبنى تدريجيا أسلوب حياة مستقرة وبدأ فى بناء ماوى ومساكن دائمة كثيراً ما كانت هذه أكوام من المساكن مبنية فى منحدرات البحيرات والأنهار .

وقد مكن نمو انتاجية العمل والتحول الى أسلوب حياة مستقرة مكنا الانسان من اكتشاف الزراعة البدائية . فقد خطر له أن حبوب النباتات يمكن أن تزرع بجوار مسكنه وبذلك تزوده بالمأكل . وكانت الذرة العويجة والجودار والشعير والقمح أولى محاصيل الطعام التى زرعها الانسان . وقد بدأ ظهور الزراعة المستقرة فى مناطق ملائمة لنمو المحاصيل (فى بلاد ما بين النهرين ، وفى وادى النيل ، وفى الهند ، وفى ايران وفى أوكرانيا الخ) . واصبحت تدريجيا الحرفة الاقتصادية الأساسية لتلك المناطق .

وتكاد تكون كل محاصيل الحقل الحالية قد تم للانسان معرفتها فى عصر مجتمع العشيرة البدائى .

وقد جعل التحول الى الزراعة المستقرة جعل الانسان اكثر استقلالا عن بيئته ، ذلك أن المستوى العالى نسبيا لانتاجية العمل التى أمكن الوصول اليها فى الزراعة ، مكن الانسان من أن يدخر رصيدا معينا من الطعام لاستخدامه فى حالات الكوارث الطبيعية ، أو العجز فى المحاصيل أو الصيد .

وقد اكتشف تربية الماشية فى نفس الوقت تقريبا . فقد أخذ الانسان يزود نفسه بمورد احتياطى من اللحم الطازج من الحيوانات البرية التى يطاردها الى اماكن مسورة وشيئا فشيئا تبين الانسان أن الحيوانات يمكن أن تستأنس وتتوالد وهى فى الأسر . وكان الاهتمام بها أولا كمصدر للحم واللبن ولم تستخدم كحيوانات للجر الا مؤخرا .

وكانت الكلاب اول حيوانات تستأنس وكانت تستخدم فى صيد البقر والخراف والماعز والخنازير . ومن نحو ثمانية الى تسعة آلاف عام مضت انتشرت تربية الماشية فى مصر ووسط وشرق آسيا والهند والصين وأوروبا وافريقيا .

ولم تزود تربية الماشية الانسان بالطعام فحسب ، بل أعطته الجلود ومنتجات أخرى ضرورية لبقائه .

ومع ذلك لم تكن الزراعة وتربية الماشية حرف ذلك العصر وحدها . فقد كانت هنالك قبائل تعيش فى ظروف جغرافية بالغة القسوة وكانت تعتمد فى معاشها كلية على الصيد وجمع الطعام . وقد اكتشفت هذه القبائل القوس والسهم وتعلموا صنع مصايد للحيوانات وادخلوا وسائل ارقى فى دبغ الجلود الخ . وقد اكتسب جامعو الطعام معرفة ذات قيمة عن عالم النبات المحيط بهم ،

سمات الخصائص العلاجية للعديد من الأعشاب الطبية واستخدام لأليات النباتية . وبانتاج أدوات جديدة وتراكم خبراتهم وخبرات لعشائر المجاورة نموا هم أيضا اقتصادهم على أسس أكثر تقدما .

التغيرات فى العلاقات الانتاجيـــة :

لم تخلق الزراعة البدائية ولا تربية المـــاشية اى جديد فى شكل الملكية . فالملكية العامة لوسائل الانتاج كانت لا تزال هى الشكل الوحيد من الملكية ، ذلك أن الزراعة وتربية المـــاشية فى الحظائر كانت تتطلب المجهودات المشتركة لكل العشـــيرة ، وبذا اقتضت الملكية العامة لوسائل الانتاج الرئيسية ، العمل المشترك وشملت الأرض ومراعى الصيد الخ . وكانت المساكن مملوكة ملكا عاما ، ذلك أن الناس ظلوا يعيشون فى مساكن جماعية كبيرة كان يشترك فيها فى بعض الأحيان بضع مئين من النـــاس .

وقد قوى التحول الى طريقة مستقرة من المعيشة ، من الروابط الاقتصادية والانتاجية بين قبائل شتى . لمن اجل الدفاع عن أنفسهم ضد الوحوش المفترسة ولحماية مخزونهم من الطعام ومساكنهم من غارات الأعداء من جيرانهم ، اتحدت العشائر المتجاورة فى قبائل . ادت العلاقات القبلية الى ملكية القبيلة . ولذا اعتبرت الأرض التى تستخدمها القبيلة كموطن اقامة لها ومراعى الصيد وصيد الأسماك ملكية للقبيلة وكان لتحول العشائر الى قبائل أهمية قصوى فى نشر المهارات الانتاجية ونهضة اللغات القبلية والثقافات القبلية .

وعلى الرغم من ظهور الملكية القبلية ، الا أن كل عشيرة احتفظت باستقلاليتها فى تقرير المسائل المتعلقة بالحيـــاة الداخلية للعشيرة ،

والاحتفاظ بمراعى الصيد الخ كملكية للعشيرة . وبنشوء شكل اكثر شمولا من الوحدة القبلية اكتسبت الملكية العامة صفات اكثر شمولا ولو انهـا بقيت فى جوهرهـا على ما هى عليه .

وقد توافق نظام ادارة العشيرة والقبيلة بأكمله مع علاقات الانتاج المشاعة البدائية . فكافة شئون العشائر والقبائل كانت فى ايدى الرؤساء ومجالس القبائل التى ينتخبها افراد القبيلة . وكان نفوذ الرئيس يتوقف فقط على ميزته الشخصية وخبرته ومهارته فى الصيد وشجاعته فى الحرب وحكمته . ولم يكن من الممكن وراثة سلطة الرئيس ولم تكن لتعطى صاحبها ميزات خاصة بالملكية عمـا لدى افراد القبيـلة الآخرين . ولم يكن لدى المجتمع المشاعى البدائى أى مؤسسات للدولة ، فحكومة العشائر والقبائل كانت مؤسسة على مبـادىء الديمقراطية القبلية أى المساهمة المتكافئة لجميع افراد المجتمع فى شئون الجماعة .

نشـــأة الفن والدين :

وبتطور الانسان زادت معرفته بالعـالم المحيط به ـــ المجتمع الذى يعيش فيه ـــ أولا وقبل كل شىء بالانتاج الاجتماعى للثروة المـادية .

وقد اكتسبت كل ظاهرة اجتمـاعية نموذجا متباينا عن غيره فى وعيـه .

وقد حاول الانسـان التعبـير عن الظواهر المتنوعة لوجوده الاجتماعى بالصور . وقد ادى هـذا لنشوء الفن كأول انعكاسات الحقيقة .

وكثيرا ما تبدت الحجارة والصخور المشكلة بهحض الصدفة للانسان كما لوكانت تشابه حيوانات مختلفة ، وعلى ذلك بدأ في اظهار التشابه بشكل ابرز بتشكيل وتلوين اكثر الصخور ملاءمة . وتعلم كيف يصنع صورا للناس وغطى جدران الكهوف بصور من الحياة . وكثيرا ما كانت هذه الصور واقعية للغاية ، وكثيرا ما صور مناظر الصيد وميادين الحياة اليومية الأخرى . وقد أتاحت له حياته اليومية مجالا فسيحا لرسومه الحائطية .

وعلى هذا لم يعدو الفن ، منذ نشأته ، ان يكون انعكاسا لبيئة الانسان ممثلا في صور معينة .

وعندما بلغ المجتمع البدائي أوج مجده ، كانت معرفة الانسان للظواهر الطبيعية التي تشكل بيئته قد أصبحت دقيقة الى حد كبير من وجهة النظر السطحية ولكن ليس بالدرجة الكافية التي تعطيه فكرة صحيحة عن جوهر هذه الظواهر . فلم تكن لدى الانسان البدائي القدرة على تفسير العلاقات القائمة بين مختلف الظواهر وتتابعها وتأثيرها على حياة الناس . وقد أدى قصور الانسان الدائم في مواجهة القوى الطبيعية ومعرفته الناقصة بقوانينها الى بدأ الأفكار الدينية عن وجود قوى فوق الطبيعة تسيطر على جميع مناحي حياة الانسان .

وقد نشأت الأفكار الدينية منذ ما لا يزيد عن ٣٠ ـ ٤٠ الف عام مضت . وكان ذلك هو الزمن الذي استحدث فيه الانسان مفهومه الخيالي عن الحيوانات كأسلاف للناس وحماة لهم (التوتمية) . وفي سعيه للحصول على رضاه والتخفيف عن حياته الشاقة كان الانسان يتملق ويترضى حيوانا معينا . وبدأ يعتقد في « الكائنات الروحانية » اللامادية التي افترض أنها مزودة بقوى فوق الطبيعة

(مذهب حيوية المسادة : حضور الأرواح فى جميع الموجودات الطبيعية) . وقد نشأت حيوية المادة مثلما نشأت التوتمية عن عجز الانسان البدائى عن فهم قوى الطبيعة . فقد حقق الطبيعة فى ذاته وصورها ككائن لامادى دون صفات انسانية وقوى فوق الطبيعة . فاله قوى الطبيعة ــ الرعد ، والبرق ، والأنهار ، والغابات وعبد آلهة الرعد ، والماء الخ . وقد أدى هذا الى استخدام مختلف الرقى والتعاويذ والشعائر الوثنية . وكان الانسان يعمل على ترضى قوى ما فوق الطبيعة التى كان يؤمن بها وذلك بالقرابين التى يقدمها للآلهة .

ولما كان الموت أبعد من ادراك الانسان فقد ملأه بالرعب والخرافة . وكان يخاف بشكل خاص من موت المحاربين والرؤساء الأقوياء ، وكل الذين كانت لهم سيطرة على الأفراد العاديين فى المجتمع ، ونسب قوى خارقة للطبيعة لهياكل بل وحتى صور الموتى . وشيئا فشيئا توصل الانسان الى فكرة وجود عالم خيالى بعد القبر تسكنه أرواح الموتى .

وعلى هذا فقد أدى عجز الانسان فى مواجهة الطبيعة الى ظهور الطقوس الدينية القديمة ، وهى بدورها أبقت الانسان فى حالة من الجهل والعجز وعاقته عن فهم العالم وقوانينه وعاقت تقدمه .

٣ ــ تحلل النظام المشاعى البدائى

تطور القوى الانتاجية فى العصر الحديدى :

فى وقت ما من الألف الثامنة قبل الميلاد تعلم الانسان كيف يستخدم المعادن الغفل فى انتاج الآلات . الا ان المعادن لم تجد

تطبيقات واسعة حقا الا فى الألف السادس قبل الميلاد عند تعلم الانسان صهر المعادن وصنع السبائك . وقد مكنته الآلات المعدنية من رفع انتاجية العمل والتوصيل الى تقدم ملحوظ تطوير كافة قوى المجتمع الانتاجية .

وباستخدام الأدوات المعدنية اكتشف الانسان طرقا اكثر معالجة الحجارة والقرون والخشب . وتعلم كيف يصنع الفؤوس والشراشر المعدنية وأدوات الزراعة الأخرى وصنع اول آلاته . عجلة الفخار ونول بدائى . وكان للأدوات المعدنية تأثير هائل على تطور الزراعة . ففى المناطق الحارة الجدبة حيث كانت الزراعة ممكنة فقط على سفوح الجبال بنى الانسان قنوات وسدودا للرى

وبنيت القنوات فى الوديان الخصبة بنقل المياه من الأنهار الى الأراضى الزراعية خلال فصل الجفاف . وفى المناطق الأقل خصبا قطع الانسان الأشجار واحرق فروعها وجذورهـا لتمهيد الأرض للزراعة . وكان الانسان يرتحل للبحث عن ارض جديدة خصبة عندما تفقد التربة خصوبتها . ففى العصور القديمة كانت هذه الطريقة فى الزراعة متبعة على نطاق واسع .

وكانت الأداة الزراعية الرئيسية المستعملة فى الأراضى المروية وارض الغابات المحروقة هى الفأس الحجرية ، وبعد ذلك بديلها المعدنى . ومن هنا نشأ اسم الزراعة المعزوقة ، احدى ظواهر ذلك العصر النموذجية . وقد رفع استخدام الفأس المعدنى مستوى الزراعة ، وجعل الزراعة الحرفة الأساسية للشعوب التى تعيش فى مناطق ملائمة . بينما تحولت القبائل التى كانت حرفتها الأساسية الصيد شيئا فشيئا ، الى تربية الماشية التى كانت اكثر انتاجية .

وكان تطور الزراعة وتربية الماشية خطوة هامة الى الامام فى تقدم المجتمع الانسانى . وقد اعطى عمل الانسان الدؤوب العالم انواعا جديدة من النبات وغالبية الحيوانات المستانسة المعروفة لنا اليوم . وبدأ الانسان فى تكديس الثروة المادية . فقد زاد انتاج العمل ومعه اتى التطور السريع فى المجتمع .

التغيرات فى انتاج الثروة المادية :

ان تخصص مختلف القبائل فى الزراعة وتربية الماشية ادى الى اول تقسيم اجتماعى كبير فى العمل . فتطور قوى الانتاج للقبائل التى تعيش على تربية الماشية وعلى الزراعة كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بحرفهم المحددة واعتمد على علاقاتهم المتبادلة . وبفضل هذه العلاقات أمكن استخدام الحمار والبقرة والحصان كحيوان جر فى الزراعة وادى ذلك بالتالى الى ادخال أدوات جديدة كسلاح المحراث المعدنى الذى ظهر فى بلاد ما بين النهرين وفى الهضبة الايرانية فى الألف الخامس قبل الميلاد .

وادى استخدام المعادن الى حدوث تغييرات جذرية أخرى ، فقد تطلبت الحرف الجديدة مثل صهر خامات المعادن وصناعات المعادن والفخار ، تطلبت أدوات خاصة وظهور قسم خاص من الناس يمتلكون المعرفة والمهارة اللازمة .

وقد كون الحرفيون مجموعة منفصلة فى المجتمع . وقد كان الجزء الأكبر من عملهم ينفق فى انتاج الآلات والأشياء الأخرى التى يتطلبها المجتمع ليس فى انتاج بضائع لاستهلاكهم الخاص . وعلى هذا فقد أصبح الانقسام الثانى للعمل ممكنا حينما مكن تطور القوى الانتاجية المجتمع من أن يشبع الى درجة كبرت أم صغرت ، مطالب

جميع أفراده بمافيهم اولئك الذين لا يشتغلون فى انتاج المواد الغذائية بأنفسهم ولكنهم يشتغلون فى أعمال ضرورية اجتماعيا .

وقد استتبع التقسيم الأول والثانى للعمل تدعيم الروابط بين المجتمعات المختلفة . فقد ادت الزيادة فى انتاجية العمل داخل المجتمعات الرعوية الى وجود فائض فى الماشية والجلود والصوف واللحم والمنتجات الحيوانية الأخرى . ومع ذلك كان ينقص هذه المجتمعات الحبوب والخضروات والمنتجات الزراعية الأخرى وفى الناحية الأخرى كان هناك فائض فى المنتجات الزراعية فى المجتمعات الزراعية مع نقص فى المنتجات الحيوانية . وبذلك نشأت ظروف التبادل الاقتصادى المنتظم بين المجتمعات . وبما ان البضائع المنتجة داخل المجتمع كانت حصيلة عمل مشترك وعلى ذلك كانت ملكية مشتركة ، وكان التبادل يتم بين المجتمعات بكاملها ، اى ان المنتجات المتبادلة كانت ملكية مشتركة لجميع الأفراد مثلما انها منتجات عملهم المشترك .

وشيئا فشيئا اكتسب التبادل صفة العادة وأصبح مرتبطا ارتباطا وثيقا بالانتاج ومؤثرا فيه . وكانت الماشية هى اداة التبادل الأساسية وفى زمن تال اضيف لها المعادن والبضائع المعدنية والآلات وادوات الزينة الخ .

وقد أحدثت التغييرات فى العلاقات الانتاجية تغييرات دفينة فى حرفة الرجال . وهذا يفسر نمو تفوق الرجل الاقتصادى على المرأة فى مجتمعات تربية الماشية — فقد اصبح عمل الرجل المصدر الرئيسى لثروة المجتمع المادية . بينما تمت تغييرات من هذا النوع فى الحياة الاجتماعية للعشيرة . وظلت تربية الماشية ، مثل الصيد

القبيل فى زمن متأخر عن ذلك بكثير فى المجتمعات الزراعية . ولكن عندما أصبحت الزراعة تلعب دورا هاما فى الحيـــاة الاقتصادية ، انتخب أقوى الرجال لكى يفلحوا الأرض . وبادخال المحراث أصبحت الزراعة مقصورة على الرجال بنوع خاص .

وبمـــا أن عمل المرأة فى مجتمعات تربية المـــاشية والمجتمعات الزراعية اقتصر شيئا فشيئا على المنزل فقد أصبحت ذات أهمية ثانوية كمصدر للثروة المـــادية . وبينما زاد دور الرجل بصفتـــه منتجا للبضائع وتوقفت رفاهية المجتمع عليه كلية ، فقد اكتسب دورا قياديا فى الحياة الاجتماعية . وتسمى المجتمعات التى يلعب فيها الرجل دورا قياديا بالمجتمعات الأبوية . وكمـــا حدث من قبل فان رئيس العشيرة وقد أصبح الآن من الرجال ، فان كل البالغين من الرجال والنساء هم يختارونه وكانت سلطته ذات صفات معنوية مبنية فقط على الاعتراف بنفوذه وملكاته . ولم تؤد هـــذه التغيرات المحددة مع ذلك الى انقسام المجتمع الى طبقـــات .

أزمة القوى الانتاجية داخل المجتمع البدائى :

لقد نمى الانتاج حينذاك الى الحد الذى أنتج فيه العمل الانسانى أكثر مما كان مطلوبا لمجرد اعاشة المنتج وعائلته . وانتاج العمـــل الفائض هـــذا يسمى فائض الانتاج ، بينما يسمى العمل اللازم لانتاجه بفائض العمل .

وقد منح ظهور فائض الانتاج الطريق أمام استغلال الانســـان للانسان .

ولم يعد يتطلب انتاج الثروة المـــادية فى ذلك الوقت اندماج

النـــاس فى وحدات انتاجية كبيرة . وقد اخذ افراد العشيرة يتخذون لأنفسهم حرفا مختلفة وتنوعت الانتاجية لمختلف العمليـــات ، وبدا يتغير الدور الذى كان يشغله افراد المجتمع فى العمل المشـــترك . وقد أدى هذا الى عدم التناسق بين علاقات الانتـــاج والمســـتوى الذى بلغته قوى الانتاج النامية . وتحولت علاقات الانتاج المبنية على الملكية العامة لوسائل الانتاج والتوزيع المتســـاوى لمنتجات العمل على افراد المجتمع ، تحولت شيئا فشيئا الى قيود ، تعوق تطور القوى الانتاجية . وكان من المحتم أن تفسح الطريق أمام علاقات انتـــاج جديدة بين النـــاس .

وبدلا من المجتمع العشائرى ، أصبحت الأسرة الأبوية هى الوحدة الاقتصادية للمجتمع . وحلت العلاقات الاقتصادية محل رابطـــة الدم بين الأسر . وكان على المجتمع العشائرى أن يفسح الطريق للمجتمع الاقليمى أو مجتمع الجيرة المؤسس على المصلحة الاقتصادية المشتركة .

وقد احتفظ جزئيا بالعلاقات القديمة فى المجتمع الاقليمى . فمثـــلا كانت الأرض وهى وسيلة الانتاج الرئيسية ، لا تزال معتبرة ملكية عامة ، مع أن كل أسرة كانت تزرع قطعتها الخاصـــة من الأرض وتدير شئون أهل منزلهـــا . وعند القبائل الرعوية أصبحت القطعان ملكية خاصة لكل أسرة بذاتها . واصبحت البضـائع التى تنتجهـــ الأسر الأبوية للأسرة . وكانت المـــاشية والأمتعة المنزلية ووسائل الانتاج المختلفة ، ومنتجات العمل الفردى ، كانت العناصر الأولى للملكية الخاصـة التى نمت على حساب الملكية العاملة المتناقصة .

واصبحت الملكية الخاصـة وراثية ، وقضت على المساوات السابقة بين أفراد المجتمع . وقد أدى ظهور الملكية الخاصة الى التبـــادل

بين الأفراد داخل المجتمع وهذا بدوره ادى الى ازدياد عدم المساواة فى الملكية بين الأفراد .

وفيما بعد ادى نمو انتاجية العمل الى الملكية الخاصة للانسان منتج البضائع المادية . وحينما كان الانسان ينتج من أجل احتياجاته الخاصة المباشرة لم يكن من الممكن أن يوجد استغلال الانسان للانسان ، ولكن حينما انتج اكثر قليلا مما يحتاجه لمجرد اعاشته فقد اصبح من الممكن اجبار الانسان على العمل لمالك وسائل الانتاج الذى استولى على فائض الانتاج الذى خلقه العامل .

وكان اسرى الحرب هم او المستغلين . فقد حولهم غزاتهم الى عبيد محرومين من كافة الحقوق ويحتفظ بهم طالما كانت لديهم القدرة على تزويد سادتهم بفائض انتاج . فاذا ما تحول العبد الى عبء على سيده فقد كان للأخير كل الحق فى التخلص فيه .

وعلى ذلك تميزت المرحلة الأخيرة فى المجتمع البدائى بظهور العبيد بين المنتجين الأحرار . وكان العبد يعمل لزيادة ثروة سيده بدلا من اشباع احتياجاته الحيوية . وقد فتح ظهور العبودية صفحة جديدة فى تاريخ الانسانية وابتدأ استغلال الانسان للانسان . واصبح المجتمع الذى كان مؤسسا فى الماضى على ملكيته العامة لوسائل الانتاج ، اصبح مقسما الى ثلاث مجموعات اجتماعية رئيسية طبقا لعلاقات كل مجموعة بوسائل الانتاج .

فأولا ، كان هناك العبيد الذين لم تكن لديهم ممتلكات خاصة أيا كانت وكانوا هم انفسهم ملكا لسادتهم . وثانيا ، كان هناك ملاك العبيد ، الذين كانوا بما يملكون من وسائل الانتاج ، كانوا أيضا سادة العبيد الذين كانوا يستغلونهم ، وأخيرا ، كان هناك

الاعضاء الأحرار فى المجتمع الذين كانوا يقومون بأود اهل بيوتهم الصغيرة بعملهم الخاص وبالأدوات والوسائل التى فى حوزتهم . وكثير من هؤلاء الرجال الأحرار سقطوا تدريجيا فى مهاوى الفاقة وتحولوا الى عبيد .

وبذلك أصبح المجتمع مقسما الى فرق اجتماعية كبيرة تسمى بالطبقات تتحدد سماتها بعلاقاتها بوسائل الانتاج . ولم يعد عمل الأفراد الأحرار فى المجتمع هو المصدر الرئيسى للثروة المادية. فبعد أن عمر نظام المجتمع المشاعى البدائى حتى شاخ ، حل محله تكوين اقتصادى اجتماعى جديد هو النظام العبودى .

الباب الثانى

مجتمع ملاك العبيد

١ ــ مجتمعات ملاك العبيد فى آسيا وافريقيا

لقد أدى تماسك وتدعيم الطبقة الجديدة من المستغلين ، طبقة ملاك العبيد التى بدأ ظهورها من بطن النظام المشاعى البدائى وكذلك انتشار العبودية ، أديا الى ظهور المجتمع العبودى . وقد كان أسلوب الانتاج العبودى خطوة هامة على طريق تقدم الانسان ، لأنه وضع اقساما معينة من المجتمع خارج اطار عملية العمل ، وقد أصبح ذلك ممكنا نتيجة ظهور ونمو فائض الانتاج .

العبودية المشاعية والأبوية

وفى تاريخ تطوره مر النظام العبودى بعدة مراحل يعرف أولها بالعبودية المشاعية . وقد بزغت من داخل اطار النظام المشاعى البدائى عندما لم تكن الملكية المشاعية قد تفتت وعندما كان العبيد ملكية مشاعية أيضا . وكانت العبودية الأبوية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعبودية المشاعية ، وقد نشأت هى أيضا من بطن المشاعية البدائية وبقيت قائمة لفترة طويلة جنبا الى جنب مع العلاقات المشاعية البدائية .

وظل العبيد يشكلون أقلية ، كمـــا ان عملهم كان لا يزال يلعب دورا ثانويا فى عملية الانتاج . وحتى العبودية نفســهـــا كانت مغلفة واتخذت فى الغالب طابع اسداء المساعدة لأعضاء فى نفس العشيرة أو نفس القبيـــلة .

وفى مقابل حفنة من الطعام ، لا تكفى الا لرد غائلة الموت جوعا ، كان أسير الحرب ، وعضو الجماعة الذى دفع الى قاع الفقر يجبر على العمل لمصلحة واحد من أثرياء العشيرة . ومع نشوء وتطور نظام الملكية الخاصة نشأت وتطورت حقوق الامتلاك لتشمل السلع ومنتجيها . ومن هنا انحدر عضو العشيرة وأسير الحرب « المتبنى » الى منزلة العبد القانونية ، وأصبح بالأحرى ملكية شخصية لسيدة .

وتكفلت الحروب ، والتجارة فى العبيد ، وانسترقاق المدنيـــين المفلسين من ابنـــاء العشيرة بخلق مصدر مستمر للعبيد . ولقـــد كانت هـــذه المصادر ، اذا ما استثنينا بعض التباين والخروج على القـــاعدة هنـــا او هناك ، ظاهرة عامة سادت التطور التاريخى للمجتمعات العبودية فى كل القارات .

الطبقـــات :

كان النظام العبودى هو أول نظام شـــهد انقسام المجتمع الى طبقات انقساما تحدده العوامل والعلاقات الاقتصادية كما ذكرنا من قبـــل .

فالطبقات تتسم بما بينها وبين وسائل الانتاج من علاقات لأن

هذا العامل الرئيسى هو الذى يحدد كل القسمات الأخرى الخاصة بالتمايز الطبقى ومنها المركز الذى يشغله الانسان فى الانتاج الاجتماعى ومقدار ومصادر دخله .. الخ . ومن ثم يحق لنا أن نقول أن الطبقات مجموعات كبيرة من الناس تختلف الواحدة منها عن الأخرى بالمنزلة التى تشغلها فى اطار نظام تاريخى معين من بين انظمة الانتاج الاجتماعى ، وبالعلاقات التى تربطها بوسائل هذا الانتاج (وكثيرا ما تتواجد هذه العلاقات فى صيغها وانماطها القانونية) وكذلك بالدور الذى تلعبه فى التنظيم الاجتماعى للعمل وبالتالى من خلال نصيبها من الثروة الاجتماعية والأسلوب الذى تنتهجه للحصول على هذه الثروة .

وكثيرا ما يكون فى المجتمع الواحد أكثر من طبقتين تنقسم بدورها الى طبقات اساسية وأخرى ثانوية . والطبقات الأساسية هى التى يخلقها الأسلوب الانتاجى السائد فى هذا المجتمع . ففى المجتمع العبودى مثلا يشكل الملاك وعبيدهم هاتين الطبقتين الأساسيتين الى جانب الفلاحين الأحرار والحرفيين والمجموعات الاخرى التى تشكل الطبقات الثانوية ، والتى تجد تفسير وجودها فى حقيقة هامة هى ان النظام الاجتماعى الاقتصادى السائد فى المجتمع كثيرا ما ينطوى على بعض من مخلفات التشكيلات التى سبقته ، وبعض آخر من مكونات المجتمع اللاحق أو عليهما معا . وبالتالى فان مآل هذه الطبقات الثانوية اما الزوال بفعل التطورات الجديدة التى تطرأ على طريقة الانتاج السائدة ، واما القيام على العكس من ذلك بدورها فى المستقبل ، ذلك أن عناصر المستقبل تأخذ فى النمو والتطور مع كل دعم تكتسبه طريقة الانتاج الجديدة ومع الضعف والتحلل اللذين يصيبان النظام السائد .

نشوء الدولة :

ومع الاتساع فى عدد العبيد أخذ التعارض بين الطبقتين الأساسيتين : الملاك وعبيدهم يشتد ويحتدم . ذلك أن استغلال العبيد لم يكن أول أشكال الاستغلال فى تاريخ الجنس البشرى فحسب بل كان فوق ذلك أقسى وأكثر هذه الأشكال وحشية .

ولم يكن الفلاحون الأحرار الذين عاشوا على الكفاف ، معرضين لخطر الاستعباد الذى يحل بهم فى أى وقت بسبب ديونهم أحسن حالا من العبيد الا بشكل طفيف لا يذكر .

وأصبح الملاك وهم يسعون الى استغلال العبيد والاحرار واخضاعهم الى الأبد ، فى سبيل مضاعفة ثرواتهم الخاصة وارضاء بخلهم الذى لا ينتهى ، فى حاجة الى جهاز دائم للكبت والقهر ، هو الذى تدرج ليتخذ شكل الدولة .

وكان كبت الطبقات المستغلة واحدة من الوظائف الأساسية للدولة العبودية (شأنها فى ذلك شأن الدولة فى المجتمعين الاستغلاليين الأخيرين : الاقطاعى والرأسمالى) . وقد دأبت هذه الدولة العبودية على شن حروب متصلة تستهدف الحيازة على اعداد كبيرة أخرى من العبيد . ونهب الشعوب الأخرى واجبارها على الجزية أو تحويل أفرادها الى العبودية .

وعلى ذلك فان الدولة العبودية كانت لها وظيفة أخرى هى الدفاع عن أراضيها وتوسيع رقعتها .

واخذت هذه الدولة تدير شئونها مستعينة بجهاز خاص هو جهاز الحكومة الذى توصلت الدولة اليه فى أول الأمر من خلال تبنى بعض المؤسسات القبلية والعشائرية التى كفت عن مواءمة

مصالح القبيلة أو العشيرة ككل واصبحت مجرد أداة فى أيدى حفنة قليلة من الرؤساء الذين أخذوا بالتدريج يتوارثون الحكم. أما الرجال الأحرار المسلحون الذين كانوا أساس القوة العسكرية فى المجتمع البدائى فقد ازيحوا ليحل محلهم جيش الدولة العبودية الذى عزل عن الشعب فى تعارض معه اذ لم يكن مدعوا الا الى الدفاع عن المصالح المنحطة الأنانية للملاك العبيد ، وقد اقترن بمولد هذه الدولة انبثاق المحاكم والانماط التشريعية المعبرة عن مصالح هؤلاء الملاك دون مصالح المجتمع ككل . كما أصبح الدين جزءا لا يتجزأ من جهاز انضم اليه الكهنة يمارسون السلطة من خلاله الى جانب العرفاء والحرس والكتبة والمعلمين وجامعى الضرائب .. الخ .

وبشكل متناقض مع التجمعات القبلية والعشائرية التى خلقتها وابقت عليها وشائج الدم ، راحت الدولة تقسم الرعية وفقا للتقسيمات الاقليمية .

اولى الدول العبودية فى آسيا وافريقيا

ومع الانتصار الذى احرزه اسلوب الانتاج العبودى شرعت الدول العبودية تنشأ فى مصر ما بين الألف الرابع والثانى قبل الميلاد . ومعه قامت على طول نهرى دجلة والفرات الدول السومارية وبابليون والعقاد ، والدول العبودية فى الهند والصين . وفى النصف الأول من الألف الثانى قبل الميلاد نشأت أول دولة من هذا النوع فى اشور . وفى نفس الوقت نشأت الدولة الحديثة القوية فى الهضبة الوسطى من آسيا الصغرى كما نشأت المملكة المينوية العربية القديمة فى المنطقة اليمنية الحالية فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وفى زمن ما من ازمنة القرن الثانى عشر قبل الميلاد

نشأت مملكة الكوش فى جنوبى مصر . وفى الألف الأول قبل الميلاد تشكلت مملكة الأورارتو فيما وراء القوقاز ، بينما قامت فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد دول خوارزم وباكتريا وسوجديانا ، ومن بعدها المملكة الكوشانية فى آسيا الوسطى . وفى القرن الثامن قبل الميلاد نشأت المملكة الميدية فى غربى ايران والتى خلفتها الدولة الفارسية فى القرن السادس قبل الميلاد . اما اليونان فقد ظهر النظام العبودى فيها فيما بين القرنين الثامن والسادس بينما كان هذا القرن الأخير موعد ظهوره فى روما . وقبيل الغزو الأسبانى بقرن او قرنين اخذت الدول العبودية تنشأ فى امريكا (الوسطى والجنوبية) فيما عدا دول مدن المايا التى تعود الى فترات اقدم من ذلك بكثير .

التحالفات القبلية

وتعتبر التحالفات القبيلية اقدم اشكال الدولة واكثرها بدائية ، وهى مرحلة مرت بها معظم الدول العبودية المعروفة لنا الى الآن .

وفى العادة كانت القبيلة الأكثر قوة هى التى تشكل نواة هذا التحالف . كما كان العرش مزية خاصة للعشيرة التى ينتمى اليها رئيس هذه القبيلة الى ان اكتسبت سلطة الملك طابعها الوراثى . وفى نفس الوقت كان كبار الكهنة يختارون من صفوف عشيرة الحاكم . اضف الى ذلك أن هذه التحالفات القبلية كانت تتم باتفاق يتعارف عليه الرؤساء أو باغتصاب اضعف القبائل عن طريق الحروب المتصلة التى كانت الدولة تشنها لتوسيع رقعتها .

الاستبداد العبودى :

كانت التحالفات القبلية والطائفية هى اكثر اشكال الدولة بدائية. لكن هـــذه التحالفات هى التى تحولت بنمو سلطة الرئيس وتدعم جهاز الدولة الى تلك الدول العبودية المستبدة التى اصبحت النمط الأسـاسى لتشكيلات الدولة عبر التاريخ ، والتى انتشرت على نطاق واسع فى آســيا وافريقيا وامريكا .

وثمة عدد من الوثائق التاريخية حفظت لنا الى هذا اليوم تسمات جوهرية اتسمت بها الدولة الاستبدادية القديمة . ففى تشريعات حمورابى ، وهى مجموعة من القوانين صاغها واحد من أعظم ملوك بابيلون معلومات طريفة وهامة تعكس الحياة الاجتماعية فى المجتمع العبودى .

اما بابيلون فقد كانت على عهد حمورابى دولة عبودية استبدادية بمعنى الكلمة لهـــا حكومتها المركزية المتمتعة بكل سلطات السيادة (التشريعية والتنفيذية والقانونية) المركزة جميعهـــا فى يد الملك . ولقـــد كان التطرف فى تعظيم وتمجيـــد السلطة وشخص الملك الذى كثيرا ما تحول الى اله معبود من السـمات الجوهرية المـــيزة للأيديولوجية السائدة فى الممالك القديمـــة . كما كانت سلطة الملك هـــذه تستند الى جهاز بيروقراطى معقد يقسم الادارات المركزية والمحلية على مختلف الموظفين والولاة .

علاقات الانتاج فى المجتمع العبودى :

وتنكشف لنـــا فى قوانين حمورابى معلومات غزيرة عن طبيعة العلاقات الانتاجية لا فى مملكة بابيلون وحدها بل كذلك فى كافة المجتمعات العبودية .

الطبقة الحاكمة فى بابيلون كانت تستوعب فى صفوفها متوسطى الملاك العبيد وصغارهم ، وهى الطبقات التى تدافع قوانين حمورابى عن مصالحها . وتقدم لنـــا هذه القوانين صورة حيه تعكس الطبيعة الطبقية للدولة العبودية ونظامها التشريعى .

ولقـــد كانت الملكية العبودية لوسائل الانتاج وللمنتجين انفسهم (العبيد) هى الأساس الذى انبنت عليه العلاقات الانتاجيـــة فى النظام العبودى .

ولكن الدور الأســاسى الذى كانت تقوم به هذه الملكية فى المجتمع العبودى لم يكن يستبعد الملكية الصغيرة التى كان الفلاحون الأحرار والحرفيون يتمتعون بهـــا . هذه الحقيقة تصـــدق بالنسبة ببابيلون ايضا على الرغم من أن احرارها كانوا يفقدون استقلالهم باستمرار ويتحولون الى منزلة العبيـــد . ذلك أنهم كانوا فى سبيل الحصول على ما يقيم أودهم ، يلجأون الى الاستدانة من أغنياء ملاك العبيد . وهنـــا كان الرجل الحر الذى يعجز عن سداد ديونه يخسر كل ما يملكه ليصبح بنفسه ضامنا او كفيـــلا .

المشاعية فى المجتمع العبودى :

وكيف أمكن للمجتمع البابيلونى أن يتشكل فى نفس الوقت من العبيد ومن الاحرار ؟ .. السبب فى هذه الظاهرة هو ان هؤلاء الأحرار كانوا فى الأســـاس من الفـــلاحين الأحـــرار المتبقين من المجتمعات البدائية .

فان الشرائح الكبيرة من الأراضى الخصبة التى ترويهـــا فيضانات الأنهار كانت قد ولدت منذ مدة طويلة سبقت ظهور الدول ، فكرة

الزراعية المبنية على نظم الرى المعقدة والمنظمة تنظيما جيدا . ولقد كان من الممكن أن يؤدى انشاء المزارع الشاسعة المرتكزة على عمل العبيد ، وتقسيم الأراضي المروية ، ونظم الرى بين الملاك ، الى المخاطرة بالانهيار التدريجى للزراعة والرى معا ، لأن العبيد كانوا يفتقدون اى اهتمام بنتائج عملهم .

ولذلك فان الدولة قد اكتشفت انه من الأجدى لها الاحتفاظ بالملكية المشاعية ، الا أن الزمن الذى كان اعضاء المجتمع المشاعى لا يعرفون الاستغلال فيه كان قد ولى ، لأن الملكية المشاعية كانت قد اصبحت فى الظروف التاريخية المتغيرة موضع الاستغلال من جانب الدولة العبودية . وبات على الفلاحين العاملين فى هذه المزارع تسليم القسط الأكبر من محاصيلهم الى الملك والكهنة والجيش ، وفى نفس الوقت كان العرفاء قد احكموا رقابتهم الشديدة على نظم الرى ملتزمين بدفع الضرائب والأموال المقررة بانتظام .

ولقد كانت الصورة التى قامت فى الدول الاستبدادية القديمة التى ظهرت فى مصر والصين والهند وايران ومملكة اينكاس الخ .. مشابهة للصورة التى قدمناها مع بعض الفروق هنا وهناك .

ولكن الدولة العبودية هى نفسها التى انتهت بالقضاء على الزراعة المشاعية رغم الاهتمام الذى ابدته للحفاظ عليها . فان الملك نفسه كان يمتلك مساحات كبيرة من الأرض اخذ يوسعها على حساب المشاعيات الفلاحية . كما لجأ فى سبيل تدعيم الأسس الاجتماعية لسلطته الى منح مساحات كبيرة من ارضه او من الأراضى المشاعية الى ملاك العبيد من حاشيته ، والى الموظفين العلمانيين والعسكريين ورجال الدين . وقد ادى هذا كله الى جانب اغتناء قسم من المجتمع وافتقار القسم الآخر دورا هاما فى تحلل وانقراض المشاعية .

فى هذه الدول حققت القوى المنتجة تطورا بعيد المدى. ففى مصر على سبيل المثال اخذت الأدوات الزراعية المصنوعة من الحديد تقضى بشكل تدريجى على استخدام الأدوات المصنوعة من الحجر . وفى أيام حكم الأسر الوسطى شهدت مصر نشوء الحرف والتجارة . وعلى العموم فان الحرف كانت مهنة الأحرار لكن ما أن حلت الحقبة التى تلت (أى فى عصر الأسرة الحديثة) حتى أمكن رؤية هؤلاء الأحرار وهم يعملون الى جانب اعداد متزايدة من العبيد . وفى هذا العهد تطور التخصص الحرفى على نطاق واسع . وثمة انماط مختلفة من العمل وجدت فى مصر حينذاك تدل عليها نقوش الحوائط فى احدى المقابر القديمة حيث نشاهد الغزالين والنساجين والدباغين والنجارين وطارقى النحاس وعمال الصهر والمسابك . وفى هذا العهد استبدل بالمغزل الأفقى الذى كان يستلزم عمل شخصين أو ثلاثة ، مغزل عمودى لا يستلزم الا عمل شخص واحد . كما ظهرت مخترعات جديدة مثل الكير الذى يدفع بقدم لنفخ النار فى الكور ، ومثل مقابض المحاريث التى ادخلت عليها بعض التحسينات ، وصب الأشكال المجوفة من البروذز ، وانتاج الزجاج الذى حقق تطورا بعيد المدى .

ومن الممكن ملاحظة صورة مشابهة لذلك اتخذها تطور الحرف فى بعض البلدان الأسيوية والأفريقية ، فان قانون حمورابى يدلنا فى هذا الصدد على تخصصات عديدة فى مجال الحرف كما أن كتاب هيلبيندا بانجهسا يقدم لنا صورة عن مختلف اهتمامات الحرفيين فى باكتيريا مثل الفخار ودباغة الجلود وصناعة الملابس والأمشاط والمغزل والسلال والأقواس وتشغيل المعادن .. الخ .

ثم بدات المساكينات المعقدة تظهر الى جانب الأدوات والأجهزة البدائيـــة . واتاحت المخترعات الميكانيكية رفع الكتل الضخمة من الحجارة لبناء اهرامات مصر العظيمة الا ان اشق واصعب الأعمال كانت توكل الى العبيد .

وأدخلت التحسينات على نظم الرى التى ظهرت اول ما ظهرت فى النظام المشاعى البدائى ، وذلك بفضل الأجهزة الجديدة والمعرفة التكنيكية النامية ، وقد أتاح استخدام الأدوات الحديدية مثلا تشييد القنوات فى التربة الصخرية فى مملكة اورارتو .

وفى الوسع اعتبار نظم الرى على النيل فى أسوان واحـــدا من المنجزات العظيمة فى الأزمنة القديمة ، ولكننا لا يمكن أن نضاهيها بنظام الرى الذى يبنيه الشعب المصرى حاليا مستفيدا من المساعدة الأخوية التى يبذلهـــا الاتحاد السوفيتى ، فان النظام الجديد يقـــدم للعـــالم سدا طوله خمس كيلو مترات ومحطة كهربائية طاقتهـــا ٢ر١٠٠ر٠٠٠ كيلو وات ومليونين من الفدادين ترويها الميـــاه .

وادى تطور التجـــارة البحرية الى تحسن بناء السفن ، كمـــا حقق التكنيك العسكرى تطورا كبيرا .

تطور العلاقات السلعية النقدية :

وقد استخدم الناس حتى فى الأيام التى سادها التبادل البـــدائى معادلا سلعيا عاما كان عبـــارة عن سلعة تقوم بدور الوسيط بين السلع المتبادلة . وكانوا يستخدمون اول الأمر لهذه الأغراض بعض السلع ذات الأهميـــة القصوى مثـــل الأغنـــام والفراء والجلود والعنـــاج .. الخ .

أما فى المجتمع العبودى فقد اخذت المعادن تقوم على نحو تدريجى بهذا الدور ، فاصبح الحديد والنحاس فى أول الأمر يقومان بدور المعادن ، ثم الذهب ، والفضة بشكل خاص . وحينذاك ظهرت النقود كمعادل عام بين كل السلع الأخرى لتصبح بعد حين سلعة السلع .

ومع نمو التجارة تشكلت طبقة لا تقوم باى دور فى الانتاج ، متفرغة تفرغا كاملا لعمليات التبادل ونعنى بها طبقة التجار ، الذين أصبحت التجارة بالنسبة لهم وسيلة لانتزاع جزء من المنتجات التى يخلقها عمل الشعب العامل .

ولقد كان ذلك هو التقسيم الاجتماعى الثالث للعمل ، فان الاقتصاد الطبيعى الذى كان الشكل المسيطر الى ذلك الوقت قد أخلى مكانه للانتاج السلعى اى الى الانتاج من أجل التبادل .

نشوء المدن :

ان الانتاج الحرفى انتاج سلعى بطبيعته ، فان الحرفى لا ينتج القدر الأعظم من منتجاته بهدف الاستهلاك الشخصى ، بل للتبادل أو البيع . ومن ثم تنشأ ضرورة توثيق الصلات بين الحرفى والتاجر الذى يتدخل وسيطا بين المنتج والمستهلك الأمر الذى ادى الى ظهور مواطن يعيش فيها التجار والحرفيون ، تشكلت المدن التى تطورت الى مراكز للحرف والتجارة .

ولقد انبثقت المدن فى الكثير من الأحوال حول الأماكن التى اتخذتها القبائل مراكز دائمة لمخيماتها ، وحول المراكز الدينية ، وبالقرب من التحصينات والينابيع ، أو على مفترق الطرق التجارية .

وعلى سبيل المثال فان مدينة مكة نشأت فى أواخر الألف الثانى قبل الميلاد حول ينبوع للاستشفاء كان الناس يتجمعون حوله لعبادة الحجر الأسود المقدس .

نمو الروابط التجارية :

وفى تلك الأزمنة القديمة التى كان الانسان لا يعرف فيها فكرة البخار والكهرباء كمصدر للطاقة ، بل حيثما كانت القوة الحيوانية لا تستخدم الا فى نطاق ضيق ، كانت أرخص وسائل النقل هى الروامس والقوارب والسفن . ولذلك فقد تأسست العلاقات التجارية أول نشوئها فى هذه الأزمنة أساسا بين البلدان والمدن الواقعة على سواحل البحار وشطئان الأنهار ، فاكتسبت التجارة مع نمو هذه العلاقات أهمية متزايدة لتصبح المصدر الأساسى للثروة فى بعض البلدان والمدن . ومن ذلك أن الفينيقيين القدامى الذين اقاموا مدنهم على طول الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط فى الألف الثالث قبل الميلاد قد اشتهروا بقدراتهم التجارية الفائقة وبالمكر والبخل الذى اتسم به تجارهم . ولقد أخذت السفن الشراعية الفينيقية حينذاك تجوب هذا البحر ، وقد امتلأت عنابرها بمختلف السلع التى كان العبيد من أهم موادها التجارية .

وفى نفس الوقت تأسست الطرق التجارية والبرية لتصل الى البلدان النائية فى افريقيا وآسيا ، وأخذت القوافل تقطع آلاف الكيلو مترات للوصول الى مقاصدها .

وقد افضى تطور التجارة والعلاقات السلعية والنقدية الى تركيز الثروة فى أيدى اقلية صغيرة والى افقار الغالبية العظمى . وراحت الطبقة الأكثر غنى تنتهز فقر الفلاحين والحرفيين ، وتتطوع باقراضهم

النقود ووسائل الأود الأخرى (الأغذية والادوات ... الخ) . بفوائد عالية . وقد كان هذا الفلاح أو الحرفى يرهق فى غالب الاحوال لأسباب كثيرة منها كبر العائلة التى يعولها ، والكوارث الطبيعية ، والأمراض ، والغزو الأجنبى ، فلا يعود قادرا على سداد ديونه ، فيتحول هو أو أطفاله فى نهاية الأمر الى عبيد ، بمعنى انتقالهم من مجموعة اجتماعية (هى مجموعة الأحرار) الى مجموعة اخرى (هى مجموعة العبيد) . ونصل من ذلك الى ان لتطور العلاقات السلعية والنقدية قد وسع من هوة التمايز فى المجتمع وفى الملكية .

الصراع الطبقى ومغزاه :

ويحفل المجتمع العبودى طوال تاريخه بالصراع الطبقى ، وقد كان فى اساسه صراعا بين الملاك وعبيدهم ، كما كان يثور بشكل حتمى بسبب التناقضات القائمة بين الأوضاع الاقتصادية التى كانت عليها الطبقات المختلفة ، والمصالح المتنازعة النابعة من اختلاف المراكز التى تشغلها كل طبقة فى نظام الانتاج الاجتماعى . فالعبيد وقد حرموا من الملكية واخضعوا لاكثر واقسى الانواع وحشية فى تاريخ الاستغلال كانوا مهتمين على نحو موضوعى بالقضاء على أسلوب الانتاج والنظام السياسى اللذين هبط بهم الى هذه الحالة المريعة ، والتى كان مستغلوهم يحرصون عليها غاية الحرص . ولهذا فان العبيد كانوا يشكلون طبقة ثورية على الرغم من الطابع المحدد لهذه الثورية .

وقد عكست الهبات المسلحة التى قاموا بها فى الدول الآسيوية والأفريقية القديمة صورة حية من هذا الصراع الطبقى . ففى نهاية عهد الأسر المصرية الوسطى انفجرت هبة مسلحة عارمة

من قطاعات الشعب الدنيا ، وانضم فيها الى العبيد جماهير عريقة من الفلاحين والحرفيين الذين آلوا الى الفقر الشديد .

كما أن الصين القديمة كانت على مدى قرون طويلة من تاريخها مسرحا لهبات العبيد المتصلة ، كبتتها الطبقات الحاكمة دون رحمة وكانت الهزيمة هى النهاية الحتمية لكل هذه الهبات لأن القائمين بها كانوا يفتقدون التنظيم والنظام اللازمين ولأن جهودهم كانت فى العادة مبعثرة ومفككة بحيث لم يستطيعوا مواجهة قوات الطبقات الحاكمة المسلحة احسن تسليح ، فضلا عن أن الشروط الضرورية للقضاء على استغلال الانسان لأخيه الانسان لم يكن قد تهيأت بعد فى ذلك الحين .

وعلى الرغم من ذلك فان الكبت الذى عانته هبات الفلاحين الأحرار والحرفيين والعبيد لا ينفى ما لهذه الهبات من اهمية تقدمية عظيمة ، ذلك أنها دمرت العلاقات الانتاجية العقيمة واحلت بدلا منها علاقات اكثر تقدما .

ايديولوجية وثقافة الدول العبودية :

ولقد كانت هى الخطوات الأولى فى نضال الجماهير من أجل التحرر ، كما أنهم قد صهروا ودعموا من خلالها تقاليد هذا النضال التاريخى ، بل انهم تمكنوا عن طريقها من تحقيق بعض الحاجات المؤقتة حسنت فى كثير من الأحوال ظروف الجماهير العاملة ، ودفعت الى تطور القوى الانتاجية .

ولقد كانت بعض القسمات والسمات الخاصة التى منها الاحساس بالواجب والجماعية واحترام العمل اليدوى (البدنى)

من الخواص الكامنة فى ايديولوجية الانسان فى المجتمع المشاعى البدائى قبيل نشوء العبودية . ولقد كانت هذه الأفكار شأن غيرها من ظواهر ذلك العصر وثيقة الصلة بالدين ، كما أن الآلهة العديدة المعبودة فى ذلك العصر كانت تتمتع بنفس القدر من المساواة السائدة بين أعضاء المجتمع انفسهم والذين كانوا يجدون بدورهم نفس المعاملة من آلهة مجتمعهم (قبيلتهم أو عشيرتهم) .

الا أن انقسام المجتمع الى طبقات متنازعة قد انتهى الى اعادة تقسيم الثقافة والأيديولوجية الواحدة الى ثقافات وايديولوجيات للاستغلاليين واخرى للمستغلين ، علاوة على أن الاستقرار التدريجى لهذه الأفكار المتناقضة فى وعى الانسان قد شكل القسمة الجوهرية للأيديولوجية الانسانية فى الدول العبودية القديمة كما أن هذا التناقض قد وجد تعبيره فى الفن والأخلاق والفلسفة ، واصبح واضحا بشكل اكثر حيوية فى الدين بسبب الطبيعة الشاملة لهذه الناحية من البناء الفوقى .

وبانعزال الطبقة الحاكمة عن الشعب عامة وتدعمها اخذت الأرواح والآلهة العديدة مكانها لعدد محدود نسبيا من الآلهة كان الكهنة هم الذين يختارونها لتقوم بأعمال اللاهوت الرسمى . وكانت العبادات الرسمية تلاقى مساندة واسعة من جانب الطبقات الحاكمة . وعلى الرغم من تنوع هذه العبادات فان وظائفها الطبقية كانت واحدة وهى اخضاع الشعب العامل وتهديده بغضب الآلهة عقابا فى هذه الدنيا وفى الآخرة . وبطريقة او بأخرى كانت هذه الديانات الرسمية ترفع حكم الاستغلاليين والملوك الى اوثان معبودة .

وفى الكثير من الأحوال كانت هذه العبادات غريبة على الجماهير التى لم تكن تفهمها ، علاوة على انها كانت فى الغالب ذات أصول اجنبية . وعلى ان الأفكار الدينية لدى العبيد والأحرار والحرفيين كانت مغايرة بطريقة ما لوجهات النظر الدينية الرسمية التى فرضها الكهنة على الشعب ، بل لقد اتخذت هذه الفروق طابعا سافرا فى بعض الأحيان . ومن ذلك أن الملوك والنبلاء فى ارمينيا القديمة كانوا يعتنقون الديانات الهيلنية ولكن ما من شىء كان فى وسعه اجبار الشعب على التخلى عن معتقداته القديمة ولا سيما فى عبادة آله الطبيعة آرا المجيد الذى مات وبعث من جديد .

ولم تكن العبادات على الرغم من كل ذلك هو المجال الأيديولوجى الوحيد الذى انعكست فيه هذه التناقضات بين الشعب والطبقات الاستغلالية .

فقد اخذت الطبقة الحاكمة تتكشف فى أول أمرها عن موقف من العمل البدنى هو اللامبالاة ثم الازدراء فالاحتقار اذ كانت تعتبره حرفة غير جديرة بالنبلاء . الا ان العمل قد ظل بالنسبة لغالبية الشعب فى الدول العبودية القديمة موضع تقدير عظيم . وفى نفس الوقت كانت بعض الاجراءات التى تتم اثناء العمل مرتبطة فى غالب الأحوال بالمفاهيم الدينية المتباينة .

ثم كانت الملكية الخاصة وتراكم الثروة لدى الافراد سببا فى ان اصبحت الأنانية واحدة من القسمات الجوهرية المميزة للطبقة الحاكمة التى بدأت مصالحها الشخصية تسود فوق مصالح الشعب والبلاد . اما الشعب ، أما الكادحون فى الأرض ، والذين وحدتهم العمليات المشتركة اثناء الانتاج فقد ظلوا يضعون مصلحة المجتمع فوق أفراحهم وخصوماتهم مستعدين دائما للتضحية بثرواتهم فى سبل المصلحة العامة .

تراكم المعرفة : بدايات العناصر الأولى المكونة للمادية والجدلية (١) :

ولقد سبق وان ذكرنا أن الدين كان فى الدول العبودية القديمة اعظم اشكال الوعى الانسانى شمولا . وهذه حقيقة تفسر لنا لماذا سيطرت المفاهيم المثالية فيما يتعلق بالطبيعة والمجتمع . وعلى هذا فان كل الظواهر الطبيعية والتصرفات الانسانية والأحداث الاجتماعية التى لم يكن من المتاح تفسيرها علميا فى ذلك الوقت كانت تفسر باللجوء الى القوى فوق الطبيعية ، ولم يكن من الممكن مضاعفة نمو القوى الانتاجية ، وتطور العمل الأكثر تعقيدا الا من خلال تراكم المعرفة الموضوعية . وكان ظهور فائض الانتاج هو الذى أتاح للشعب مزيدا من الوقت لمتابعة العمل الثقافى والتعرف تدريجيا على قوانين الطبيعة وبهذا أمكن اعتبار فيضانات النيل النيل السنوية حدثا منتظما . ورغم أن المصريين ظلوا يمارسون عبادة التماسيح فان هذا لم يحل بينهم وبين حسبان وقت الفيضانات ومقادير الطمى المتوقعة والمساحات التقريبية التى يتيح الفيضان ريها .

هذه الجذور الأولية للمعرفة الموضوعية عن الطبيعة ادت الى ظهور المفاهيم الفلسفية والنظريات الأولى التى اعتبرت المادة أساس كل كيان موجود على النقيض من التصورات المثالية القديمة التى اعطت المكانة الأولى للروح وللقوى فوق الطبيعية . وعلى سبيل المثال فان الأساطير المصرية القديمة تعتبر الهواء خاصية

---

(١) المادية نظام فلسفى يقوم على الاعتراف بالمادة ، وبالأساس المادي للواقع القائم باعتباره الكائن الأساسى ، بينما الوعى والروح والأفكار ثانوية ومن نتاج المادة نفسها . والفلسفة المادية ترتكز على مكتشفات العلم . اما الجدلية فهى علم دراسة التطور والحركة بينما الجدليات الماركسية هى نظرية القوانين الأكثر شمولا لتطور الطبيعة والمجتمع والفكر الانسانى .

مميزة لكل ما هو دائم . كمـــا ان العـــالم كله ينبع ومقـــا لهـــذه الأساطير من أساس مادى هو المـــاء . اضف الى ذلك ان فلاسفة الهند كانوا قد بادورا منذ احقاب طويلة سبقت عصرنا لمعـارضـة الديانة الراهمية القديمة معتبرين كل الظواهر الطبيعية نتاجا لاتحاد اربعة عنـــاصر مادية هى المـــاء والتراب والنار والهواء .

العـــلم والفن :

ومع التطور الذى شهده الانتاج اصبحت النشاطات السياسية التى يبذلهـــا الانسان اكثر ثراء وتنوعا ، كما باتت طاقات العلم والمعرفة اكثر اتساعا . ولأنه كان من الضرورى حســبان مقادير البذور التى ضمت او بذرت ، وقياس مســـاحة الحقل او طول اخدى الترع والتنبؤ بقرب الجفـــاف او الفيضان ، وتحديد مدى مرونة او تركيب البرونز .. الخ . فقد ظهر علم الحساب والهندسة والفلك واوليات علمى الكيمياء والطبيعة . كمـــا اقترنت الرسوم البدائية التى لم تكن تحمل الا جزءا من المعنى المكتوب ، بالهيروغليفية وحروف الأبجدية التى مكنت من كتابة كل وحدات اللغة . وهـــذا يعنى امكانية قيامنا بصياغة القوانين التى سنت حينذاك للدفاع عن مصالح الطبقة الحاكمة وامكانية قيامنا بالحسبان الدقيق لمقادير السلع التى تم بيعها او شراؤها ، او مقدار الثروة التى كان احد الأفراد والمعابد يمتلكها وقوة الدولة المعادية .. الخ . ويوضح لنـــا كل هذا ان احتياجات الدولة العبودية قد افضت الى ظهور الكتابة الخطية .

وقد ادى ظهور اللغة المكتوبة فى الدول الآســـيوية والأمريقية القديمة الى ظهور وتطور الأدب فيها . ومن أدلة ذلك تلك الثروة الهائلة من الأعمال الأدبية التى تركها لنـــا الكتاب المصريون مثـــل الترجمات الذاتية والأقوال المأثورة والأناشيد وأدب الرحلات . الخ .

وتحفل كل هـــذه الأعمال شأن كافة المظاهر الأيديولوجية الأخرى فى الثقافة القديمة بالتناقضات الطبيعية . هذه واحدة من أوراق البردى المصرية تحكى لنـــا قصة فتاة من بنات العبيد ابتلعهـــا التمساح عقابا على عدم الاخلاص لسيدتها ، وهى قصة تميط اللثام عن ايديولوجية الطبقة الحاكمة ، بل ان من الممكن للمرء أن يصادف كتابات تعكس غضب المقهورين مثل الذى نستشعره فى المقطوعة التالية المـــأخوذة من اغنية مصرية قديمة :

اهو قدر مكتوب علينـــا
شحن الشعير والخارصين
فى كل يوم
فى كل يوم
ها هى الأجران ملأى
ها هى تنفجر بالحبوب
لكننا مرغمون
مرغمون

وقد مارست المنجزات التى حققتها الشعوب الآسيوية والافريقية القديمة فى الانتـــاج والعلوم والآداب والفنون تاثيرهـــا الكبير على التطورات الثقافية اللاحقـــة ، ولا سيما فى بلدان البحر الأبيض المتوسط . فهى على وجه التحديد التى دفعت الى التعجيل بتطور القوى الانتاجية فى المجتمعات الافريقية والرومانية العبودية .

الدول العبودية :

فى افريقـــيا :

وقد شـهدت اقاليم واسعة من هذه القـــارة نشوء وتطور دول

عبودية متباينـــة ، منهـــا التى قامت فى مصر وكوش وقرطاجة ونوميديا . ولكن مصر وكوش كانتا اهم هـــذه الدول لأن تشكيلهما كان على العكس من الدول الأخرى مثل قرطاجة بعيـــدا من اى نفوذ جوهرى للحضـارات غير الأفريقية .

مصر القديمـــة :

وقد أدى انبثاق دولة استبدادية عبودية مصرية فى اواخر الألف الرابع قبل الميلاد الى بداية فترة هامة من فترات التاريخ القديم ، وتشمـــل ما يسمى بالفـــترة القـــديمـــة ، والتى اخـــذ ملاك العبيد فيهـــا بعد أن ملكو جيشا قويا يشنون حروبا متصلة لا تكف لامتلاك شبه جزيرة سيناء والنوبة الشمالية .

وفى هذا العهد أتاحت الدولة المركزية تحسين وتطوير نظـــام الرى الذى كان أساس الزراعة . وكان لصيد الأسماك والعبيـــد اهمية اقتصادية بالنسبة للشعب المصرى بالاضـــافة الى التطور الذى حدث فى ميدان تربية المـــاشية ، ولا سيما فى الدلتـــا التى كانت غنية بالمراعى .

وكانت القرية هى الوحدة الاقتصادية والاجتماعية الأساسية ، والتى كان ملاك العبيد ينزلون بهـــا أبشع انواع الاستغـــلال . ثم نشأت فيما بعد ذلك وعلى نطاق واسع ، مزارع المعابد ، وكما كان الحال فى حوضى دجلة والفرات فان كوميونة القرية أخـــذت تحلل تدريجيـــا بسبب الانقسام الطبقى الحاد وانتزاع ملاك العبيـــد والكهنة والمرابين للأراضى العـــامة ، الأمر الذى آل بالفلاحين الى فقر مدقع جعلهم لا يختلفون كثيرا عن العبيد .

وكان العبيد هم قوة العمل الأساســـية فى أراضى الملك والمعـــابد

وفى أبعديات اغنياء ملاك الأرض وكبار الموظفين ، وكان عددهم يتضاعف بشكل ثابت. كما أن الفراعنة المصريين قد شنوا لمصلحة الطبقة الحاكمة عديدا من الحروب لاغتصاب عبيد جدد بالاضافة الى الماشية وغير ذلك من الثروات .

ولم يكن الهدف الأساسى للسلطة الملكية فى مصر الا تدعيم حكم ملاك العبيد ، الأمر الذى دعا الى اقامة حكومة مركزية صارمة . وراحت الثروات الخرافية تتدفق فى الخزانة الملكية لا من غنائم الحرب وحدها بل كذلك من الضرائب الباهظة التى كانت تجبى من الشعب بواسطة جيش من موظفى الملك . ولم يكن القانون الا اداة اخرى فى يد الطبقة الحاكمة ففى المديريات كانت مراكز القضاء الملكى لا تشغل الا بنواب الملك وكان رئيس القضاة فى نفس الوقت كبير مستشارى فرعون ، وكان يعتبر — بصفته حاملا للتشريع «الالهى» وكان الآلاف من العبيد والأحرار يساقون قسرا الى العمل فى بناء الأهرامات الضخمة التى اقيمت لتمجيد الفراعنة والطبقة الحاكمة عموما .

أما فى العصرين التاليين ، عصرى الامبراطورية الوسطى والحديثة فقد ظل التركيب الحكومى للدولة دون تغيير كبير من الناحية العملية .

دولة الكوش :

هذه الدولة بدأ عصرها الذهبى فى زمن قريب من القرن الثامن قبل الميلاد ، بيد أن تاريخ نشوء الدولة نفسها يرجع الى القرنين الثالث عشر والثانى عشر قبل الميلاد . ولقد كان الكوشيون خاضعين لمصر القديمة فترة طويلة من الزمن ، لكنهم استقلوا منذ القرن الثامن ، بدولتهم التى راحت بدورها تغزو مصر الى ان

إخضعها الملك الكوشى بعنخى فى سنة ٧٢٥ قبل الميلاد تقريبا . وقد اتسعت هذه الدولة حتى شملت المناطق الواسعة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط الى حدود اثيوبيا واوغندا الحاليتين . بل كانت هذه الدولة تشكل لبعض الوقت قوة عالمية . الا أن الكوشيين كانوا فى حالة حرب متصلة ضد الاشوريين والمصريين ، وفى آخر الأمر ضد الرومان ، وكثيرا ما حققوا انتصارات هائلة منها الانتصار الذى تشير اليه السجلات التاريخية حينما هزموا الميالق الرومانية . هذه الصراعات المتصلة مع الدول الأخرى قد ادت الى تداعى المملكة الكوشية ، ومن بعد الى انهيارها الكامل فى القرن الثالث قبل الميلاد .

وكما كان الحال بالنسبة للحضارة المصرية فان الحضارة الكوشية قد ازدهرت فى الأراضى الخصبة الممتدة على ضفاف النيل ولكن الظروف الطبيعية القاسية غير الملائمة ، الى جانب الغزو المتصل من جانب القبائل الرحل قد حالت دون بناء الكوشيين لنظم الرى الضخمة مثل تلك التى اقيمت فى مصر وبابيليون وغيرهما من الدول العبودية القديمة . ثم كان للرعى وتربية الماشية أهمية اقتصادية كبرى بالنسبة لهم ، وقد ادت الحفريات الى اكتشاف امثلة ممتازة من الفخار المحلى وادوات الاستخدام اليومى المصنوعة من الخشب والذهب والنحاس والجلود والعاج مما يشير الى المستوى النسبى الراقى الذى بلغته الحرف هناك . . وما زالت الآثار القديمة الدالة على الحضارة الكوشية قائمة الى يومنا هذا ومنها اعمال النحاتين والمثالين والمعماريين والفنانين . كما كان للكوشيين طريقتهم الهيروغليفية الخاصة بالكتابة ، وان كانت بعض امارات النفوذ المصرى ملحوظة فى ثقافة هذه الدولة .

وكانت العبودية منتشرة على نطاق واسع بين الكوشيين متخذة

مصادرها كمـــا كان الحال فى مصر من الحروب واستعباد المدنيين والتجارة فى الصيد ، كما أن علاقاتهم التجارية كانت واسعة حتى انهـــا امتدت الى خارج القـــارة الأفريقية نفسهـــا .

الدول العبودية فى منطقة الاتحاد السوفيتى :

وقد ازدهرت الدول العبودية القديمة فى منطقة الاورارتو التى تشكل جزءا من اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الحالى ، كما قامت هذه الدول فى ارمينيا وليبيريا والكلوشيز والبانيا القديمة والخوارزم وسوجديانا وباكتريا وكوشان ومملكة البوسبروس . ويتضح لنا من المعلومات الوفيرة المستقاة من الحفريات فى بلاد ما وراق القوقاز وآســيا الوسطى والمنطقة الشـــمالية من البحر الأسود ان نمو القوى الانتاجيـــة وظهور ونمو فائض الانتـــاج والتشكيلات الطبقية فى هذه الدول كان وثيق الصلة بعصر الحديد .

الاورارتو :

ويرجـــع اقـــدم ما لدينـــا من المعـــلومات عن تـــاريخ الاورارتو القبـــلى الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . اذ قامت مملكة الأورارتو دولة عبودية فى حوض بحيرة فان فى الالف الأول قبل الميلاد لتمد نفوذها بعـــد ذلك الى مناطق شاسعة ، عن طريق جيوشها التى كانت تصل بحملاتها العسكرية الى أماكن بعيـــدة مثل حوض دجلة فى الجنوب الشرقى ، والبلاد القريبة من سواحل البحر الأبيض المتوسط فى الجنوب الغربى . اما فى الشمال فقـــد ضمت الأورارتو مناطق واسعة هى التى تشـــكل جزءا من بلاد ما وراء القوقاز السوفيتية . وكانت المرتفعات التى تحتلها الاورارتو اقل خصوبة من سهول بابيلون ومصر . ولم تكن الزراعة ممكنة الا فى وديان الأنهار حيث اتاحت النهيرات الجبلية السريعـــة والتى تميز المنطقة ، مقادير المياه اللازمة للرى . وبالتالى فقد ظلت تربيـــة

الماشية فى المكانة الأولى هنـاك لفترة طويلة . ولم يتح اقامة نظم الرى على الهضبة الصخرية وزراعة المناطق الجبلية للدولة الا بعد استحداث الأدوات الحديدية .

وعلى الرغم من أن العلاقات العبودية كانت متطورة للغـاية فى هـذه الدولة فانها كانت تنطوى على بقايا النظام المشاعى البدائى كمـا أن النظام العبودى نفسه ظل متسما بالعديد من القسمات الأبوية ، ذلك أن بعض العبيد كانوا يعتـبرون ملكا مشـاعا . كما كانت الغالبية العظمى من الشعب يتشكل من الفلاحين الأحرار الذين كانوا محاربين فى نفس الوقت . وعلى النقيض مما كان فى الدول العبودية الاستبدادية الأخرى فان الاقتصاد الملكى كان يدار على نطاق أضيق ، كمـا أن حكم الملك لم يتسم هناك بنفس الطابع الاستبدادى .

هـذه الدولة توصله الى قمة تطورها فى أواخر القرن التاسع قبل الميلاد ، وفى ثلاثينيات القرن الثامن ، فأصبحت فى ذلك العهـد التديم واحدا من اكبر المراكز لصهر الحديد ، وقام ملوكها ببنـاء المدن والقلاع ونظم الرى بالارتكاز الى العبيد والأحرار الذين شكلوا قوة العمل . وتمدنا الحفريات بعـديد من الأشـياء مثل الفخار والأسلحة والتماثيل الدالة على الشـأو الذى بلغته ثقافة شعبها . وقد استعـاروا الكتابة المسمارية من الأشوريين وكيفوهـا مع الخواص المميزة للغتلهم .

وما لبثت الحروب الوحشـية ضـد مملكة اشور ، وهجمـات الاسكيثيان من الشمال وهبات العبيد والتفكك القبلى داخل البلاد أن لعبت دورها الهام فى تداعى مملكة الأورارتو (فى القرن السابع قبل الميـلاد) تم فى انهيارها التـام فى القرن السادس قبل الميلاد.

وقد كان لهذه المملكة وحضارتها تأثير واضح فى مصائر شعوب ما وراء القوقاز ، اذ اصبحت المناطق الشاسعة التى كانت تشغلها مسرحا تاريخيا عظيما امتزجت فيه القبائل والعشائر بتشكيل مجموعات عرقية اكبر اى قوميات . ومن ذلك نشوء شعبين كبيرين فيما وراء القوقاز على ذلك العهد هما ارمينيا وجورجيا . .

ارمينيا :

وفيما بعد قرون نشأت فى نفس المنطقة التى شغلتها دولة الأورارتو دولة جديدة هى الدولة الأرمينية التى اتخذت شكلها المتكامل فى القرن الثانى قبل الميلاد لتتحول الى دولة عبودية مستبدة، انغمست منذ ايامها الأولى فى حروب متصلة مع خصومها المتاخمين . وقد وصلت الى اعظم ما بلغته من القوة سياسيا واقتصاديا فى حكم ارتاشيس الأول وتيجران الثانى (القرن الثانى والأول قبل الميلاد) . وقد ارتكز انبثاق الثقافة الأرمينية القديمة على استغلال العبيد والفلاحين والحرفيين دون رحمة ، فأقيمت المدن الكبرى والقلاع التى لا تقهر والطرق والكبارى بالاضافة الى استخراج العديد من المعادن ، فتطورت تجارتها على نطاق واسع مع ايران وآسيا الصغرى وسوريا ومصر وغيرها من البلاد .

وبلغت الثقافة الأرمينية شأوا بعيد المدى ، وعلى الرغم من وقوعها تحت تأثير الثقافة الهيلينية كان الملاحم الشعرية الأرمينية والمسرح والرسم والنحت قد احتفظت بقسماتها التقليدية . ثم ما لبث الرومان ان اخضعوا هذه الدولة فى عام ٦٩ قبل الميلاد وان كان حكمهم قد ظل شكليا الى حد كبير مما آل الى الزوال السريع .

ايبريا والكلوشيز : هاتان الدولتان اسسهما فيما وراء القوقاز آباء الجورجيين الحاليين . وقد شغلت مملكة الكلوشيز الساحل

الشرقى من البحر الأسود بينما امتدت ايبيريا على الجزء الجبلى الأوسط فيما وراء القوقاز . وكانتا دولتين عبوديتين وان انسمتا ببقايا قوية من البلاقات القبلية . ثم ما لبث أن غزوهما فى فى عام ٦٥ قبل الميلاد ، الا أن اتساع حركة المقاومة الايبيرية حال دون تمكين الغزاة من تحطيم وحدة البلاد ، وان كانوا قد اجبروا ملوك ايبيريا على اعتبار انفسهم حلفاء للأمبراطورية الرومانية . اما الكلوشيز والمناطق المتاخمة لها فقد انقسمت الى عدد من الامارات والدويلات الصغيرة الموالية لهذه الامبراطورية .

وتسلط المعلومات التى استقيناها من الحفريات ومن غيرها أضواءها على نماذج رائعة تدلنا على المستوى الرفيع الذى بلغته الثقافة الجورجية القديمة ، ومن ذلك أن ميتسخيت عاصمة الكلوشيز كانت تحفل بالعمارات المشيدة من قطع ضخمة من الحجر المنحوت ، كما ان صناعاتها الحرفية كانت متنوعة ومتطورة الى حد كبير ، وكان التخصص فى انتاج الأسلحة وصهر المعادن وصناعة الفخار والبناء والحلى اهم هذه الحرف وأكثرها انتشارا .

البانيا القديمة (١) : هذه الدولة ظهرت فى القطاع الشمالى من أذربيجان (وهى احدى الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية) فى القرن الرابع قبل الميلاد مقسمة كما كان الحال فى دول ما وراء القوقاز ببقايا قوية من المشاعية البدائية .

وكانت تربية الماشية والزراعة اساس الاتجاهات الاقتصادية التى سادت هذه الدولة ، وان حققت درجة من التقدم فى صهر

(١) هذه الدولة القديمة لا يجب الخلط بينها وبين البانيا المعاصرة فى شبه جزيرة البلقان ، وليس لها الا تطابقا عرضيا .

الحديد ، بل انها كانت واحدا من أهم مراكز انتاج الحديد والنحاس والبرونز التى استخدمها الحرفيون فى صناعة الأسلحة والحلى والتماثيل الصغيرة والزخرفة .

كما كانت للألبانيين لغتهم الخاصة مما ييسر تطور الأدب على اساس من اللغة المنطوقة لكنهم شغلوا بالحروب المريرة التى خاضوها ضد الغزاة الرومان الذين ما لبثوا أن حولوا البانيا الى واحدة من اقاليمهم يعاملونها معاملة « الحليف » ، الا ان التبعية كانت شكلية شأن تبعية ايبيريا مما اتاح لها المحافظة على استقلالها لقرنين كاملين من الزمان لتقع فى القرن الثالث قبل الميلاد فى قبضة الامبراطورية الفارسية .

الدول العبودية فى شمال البحر الأسود :

كانت القبائل الرحل والمستقرة تعيش فى السهول الواقعة شمال البحر الأسود . ولكن مع انقراض العلاقات العشائرية القديمة فى هذه السهول (فيما بين القرنين السابع والأول قبل الميلاد) نشأت التحالفات القبلية فى هذه المناطق لتنشأ معها أسس التطور الى دولة ، وفى نفس الوقت كانت المدن الأغريقية تنمو على طول سواحل البحر الأسود مكونة جمهوريات عبودية مستقلة مثل اوليفيا وتيراس وخير سونيز .. الخ . وفى القرن الخامس قبل الميلاد ظهرت مملكة البوسبوردس متخذة من بانتيكاياوم عاصمة لها . ولقد لعبت القبائل المحلية والمستوطنون الاغريق دورا هاما فى تاريخ هذه الدولة .

وما زالت المنطقة التى شغلتها هذه المملكة مشهورة بخصوبتها الفائقة ، هذه الميزة التى ادت الى تطورات مشهودة فى الزراعة وفى انتاج مقادير كبيرة من الحبوب للسوق ، فقام رخاء الدولة

على ما كان يعتبر فى تلك الآونة تجارة واسعة الحبوب . فان اثينا وحدها كانت تستورد منها فى القرن الرابع قبل الميلاد ١٥ الف طنا فى كل سنة كما كانت المملكة تعنى بتصدير الأسماك والجلود والعبيد لتستورد بدلا منها حاجياتها من اليونان القديمة و آسيا الصغرى وجزر بحر ايجة .

ولقد كان النظام ملكيا تتركز سلطاته العليا فى ايدى الملك مع الاستغلال البشع للعبيد والفلاحين الاتباع . مما رفع البلاد فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد الى قمة الازدهار الاقتصادى ، لكنها سرعان ما اهتزت تحت وطأة ازمة عنيفة حلت بها فى القرن الثانى قبل الميلاد . فقد تهددتها اخطار من الخارج نجمت عن دولة سكيثيا التى قامت فى القرم ، واخطار داخلية نجمت عن النشاط المتزايد الذى قام به العبيد والضامنون لينتهى الى هبة عارمه من الكتل بقيادة العبد سوماكوس ، لم تتمكن الطبقة الحاكمة من كبتها ومن معاملة المشتركين فيها بلا رحمة الا بمساعدة التدخل الأجنبى . ثم اصبحت المملكة التى اضعفتها التفككات الداخلية فريسة للبونتوس فى اول الأمر ثم للامبراطورية الرومانية فى نهاية الأمر ثم اصابها الغزو البربرى بالضربة القاضية التى افضت بها الى الهلاك فى القرن الرابع قبل الميلاد .

الدول العبودية فى آسيا الوسطى وكازاخستان :

فى النصف الثانى من الالف الأول قبل الميلاد عاش فى المناطق التى تشغلها الآن جمهوريات وسط آسيا السوفيتية والجزء الجنوبى من كازاخستان عديد من قبائل الرعاة والزراع ، وكانت الزراعة واسعة الانتشار فى سهول سيراداريا وامودايا وزير افشان وبحر آرال . فمنذ ٢٥٠٠ سنة مضت كانت القنوات تتخلل

هـذه المناطق على طول ٢٠٠ كيلو مترا ، ثم جاء القرنان السابع والسادس قبل الميلاد ليشهدا قيـام أولى الدول العبودية باكتريا وسوجديانا وخوارزم فى هـذه المناطق ، الا أن قرونا عديدة مرت وهـذه الدول منهمكة فى حروب متصـلة مع الغزاة الأجانب من الأجانب من الفرس والمقدونيين والرومان .

وفى أواخر الألف الأول قبل الميـلاد قامت مملكة الكوشـان فى آسـيا الوسطى لتتطور بسرعة الى دولة قوية امتـدت اقاليمها الى شـمال الهنـد وافغانستان .

وقـد حققت شعوب آسيا الوسطى تطورا ماديا عظيما وثقافة روحيـة رفيعـة تشير اليهما تلك الرسومات والتماثيل والزخارف التى استخرجها علماء الحفريات من باطن الأرض .

بل لقـد ظل الشعر الشعبى الذى راج فى هـذه المنطقة مصدر الهـام لشعراء مشـهورين على نطاق العالم مثل الفردوسى ونافوى والسـعدى .

٢ ـ النظـام العبودى فى اليونان القديمة :

المدن الافريقيـة :

كانت القسمات الخاصـة المميزة لملكيـة العبيـد فى اليونان القديمـة متصلة بالدول التى عبرت كل منهـا عن مدينة . وكان الاغريق يعنون بالمدينـة الكوميونية ، ولكنها لم تكن مجتمعا من الشعب العـامل كما كان الحال فى الشرق بل من ملاك العبيـد هـذه الأقليـة الصغيرة التى حظيت بمزايا المواطنين بينمـا حرم العبيـد واقسام معينـة من الأحـرار الذين كانوا أساسـا من مهاجرى المناطق والمدن المتاخمة من أى حق .

وكانت « البوليس » عبارة عن مدينة تحيطها الجدران الكثيفة وتضم من داخلها سكان الوديان والجزر المتاخمة .

وكان من القسمات المميزة للنظام العبودى فى اليونان القديمة الغاء الاستعباد بسبب الديون مما كان انتصارا مرموقا حققته الجماهير الاغريقية .

وقد عرفت اليونان القديمة نوعين من دول المدن . كانت السلطة فى أولاهما لملاك العبيد المتمتعين بالديمقراطية العبودية ، أما فى الثانية فقد تركزت السلطة فى أيدى مزينة بميزة هى الارستقراطية ، وعلى أساس اعتبار ملكية الأرض شرطا للتمتع بالحقوق المدنية الكاملة . وتقدم لنا أثينا القديمة نموذجا تقليديا للنوع الأول من المدن بينما تقدم لنا اسبرطة نموذج النوع الثانى .

وقد حققت الدولة الاغريقية القديمة تطورها السريع من خلال الاستغلال الذى لا يرحم للعبيد الذين كانت أعدادهم تتزايد عن طريق الحروب والتجارة فى العبيد ، بل ان استغلال العبيد كان هو العامل الأساسى فى تطور الحرف والملاحة والتجارة والفنون .

كما قام أثينا عدد كبير من الورش لا تستخدم الا عمل العبيد . وعلى العموم كانت هذه الورش صغيرة لكن عدد العبيد الذين كانوا يعملون فى الورشة الواحدة كانوا يزيدون عن المائة . وقد أدى هذا النوع من العمل التعاونى البسيط الى رفع انتاجية العمل .

وعلى الرغم من أن الاقتصاد العبودى فى المدينة الاغريقية هو الذى فتح فى أول أمره ، آفاقا عريضة أمام تطور القوى

المنتجة الا انه ما لبث ان تحول الى عقبة ضد اى تطور جديد لأن العبيد قد كفوا عن الاهتمام بزيادة انتاجية عملهم .

وفى مجرى هذا التطور للعلاقات العبودية اولا فى اليونان ثم فى روما اخذت الهوة بين العمل العقلى والعمل اليدوى ، والتى كانت قد ظهرت فى الدول الاستبدادية العبودية فى آسيا وافريقيا تتسع .

ويجوز لنا أن نفسر هذه الظاهرة بموقف الازدراء من العمل البدنى بكل اشكاله والذى انتشر بين الكتل العريضة فى اليونان ثم بين السكان الأحرار فى الامبراطورية الرومانية .

وقد ادى النمو الذى لم يسبق له مثيل فى جيش العبيد الى الافتقار التدريجى لصغار الفلاحين الأحرار والحرفيين من ناحية ، والى حشد عقولهم من ناحية اخرى باحتقار العمل البدنى الذى اعتبروه حرفة غير جديرة بالانسان الحر .

وقد تعرضت دول المدن الاغريقية فى كثير من الأحوال الى الغزو الأجنبى ، ففى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد كانت الهجمات الفارسية العنيفة خطراً خاصا تعرضت له اليونان لكن الامبراطورية الفارسية ، بكل قوتها وعظمتها وامتدادها من الهند الى مصر لم ينقذها من الهزيمة لأن الاغريق فى هذه الحرب كانوا يناضلون دفاعا عن حريتهم واستقلالهم الأمر الذى شكل السبب الرئيسى لانتصارهم .

وقد اكتسبت الدولة العبودية الاغريقية من هذه الحرب عددا كبيرا من الأسرى حولتهم الى عبيد مما ساعد فى تحقيق مزيد من تنمية العلاقات العبودية فى طول اليونان وعرضها ، ولا سيما فى أثينا حيث كان فيض العبيد كبيرا الى درجة غير مألوفة .

ولقد تأثر مصير اليونان الى حد كبير بانهيار قوة فارس البحرية فى البحر الأبيض المتوسط وتدعم التجارة فى هذه المنطقة الواسعة ، كما أن هذه الانتصارات الافريقية كانت واحدا من العوامل التى أسهمت فى التطورات الجديدة التى طرأت على المدينة والافريقية . فان القسمات التى غضت الى أزمة نظام المدينة قد بدأت تظهر فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد .

وكان من الأسباب الرئيسية لهذه الأزمة انتشار العلاقات الاقتصادية التى سادت دولة المدينة الى ما وراء حدودها السياسية . كما كان من الأسباب السياسية الرئيسية فى اضعاف المدن الاغريقية تلك الحروب البيلوبونية المرهقة التى امتدت من ٤٣١ الى ٤٠٤ قبل الميلاد ، بين الاتحاد البيلوبونى بقيادة اسبرطة ، والاتحاد البحرى بقيادة أثينا .

قيام الدولة العبودية المركزية :

وفى نفس الوقت الذى كان الضعف يعترى فيه نظام المدن كانت دولة عبودية اخرى ، هى الدولة المقدونية ، تتطور فى القطاع الشمالى من شبه جزيرة البلقان . وقد تمكن ملكها فيليب الثانى عن طريق المزج الناجح بين المناورات السياسية المعقدة والأعمال العسكرية الذكية اخضاع دول المدن كلها مستغلا تمزقها بسبب منازعاتها الداخلية وبذلك توحدت اليونان فى دولة واحدة ، الا ان الطابع المصطنع لهذه الوحدة والمرابين الأجانب تمكنا من اثارة المشاعر المعادية لمقدونيا فى صفوف السكان .

مدبرت الارستقراطية المقدونية امرها واعلنت الحرب على فارس سعيا الى صرف سخط الشعب وتوجيهه فى قنوات اخرى كافلين

لأنفسهم فى نفس الوقت ثروات الشرق الخرافية ومناطقه الشاسعة واقتناص مزيد من العبيد .

وقاد الحملة ضد الامبراطورية الفارسية القوية الاسكندر العظيم ، أحد المشاهير السياسيين والقادة العسكريين .

فبقيادته وضعت الجيوش الاغريقية المقدونية ايديها فى فترة قصيرة نسبيا (من ٣٣٤ الى ٣٢٧ ق.م) على المناطق الشاسعة الممتدة من مصر الى الهند ، متخذة من بابيلون عاصمة لهذه الامبراطورية المترامية الأطراف .

وكان من نتائج التبادل الثقافى بين العالم الهيلينى وبلدان شمال افريقيا وآسيا أن تمكن الاغريق والشعوب الشرقية من الاستيعاب المتبادل لتراثهما الثقافى . ولا شك فى أن هذا الالتحام الفريد بين الثقافات الاغريقية والشرقية كان قسمة أساسية للهيدلينية ، هذا التعريف الذى أطلق على عصر فتوحات الاسكندر والفترة التى أعقبته فى تطور الدول الهيلينية الى اليوم الذى أجبرت فيه على الخضوع للرومان .

وقد يبدو لنا ان امبراطورته واسعة مثل هذه كان فى امكانها تشكيل دولة مستقرة ، لكن العكس هو الذى حدث فان التمزق الداخلى بين العبيد وملاك العبيد وما بين الفاتحين والمقهورين ، ثم فيما بين الجماعات المختلفة من ملاك العبيد قد أدى بالاضافة الى افتقاد الوحدة الاقتصادية الى نسف امبراطورية الاسكندر .

وفى صيف عام ٣٢٣ مات الفاتح العظيم دون ان يعين خلفا له فتداعت الامبراطورية الى عدد من الدويلات المستقلة الكبيرة والصغيرة التى احتدمت خلافاتها .

٣ ـ القسمات الأساسية للنظام العبودى

فى روما القديمة :

كان العبيد فى الدولة الرومانية القديمة المنتجين الأساسيين لكل الطيبات المادية ، ومنها وصلت حدة الصراع الطبقى بين العبيد وملاكهم الى اقصى اشكالها .

ويقدم لنا تاريخ روما معلومات غزيرة تتيح دراسة نموذجية للتطور الاقتصادى والاجتماعى والسياسى فى مجتمع عبودى .

تشكيل المجتمع العبودى والدولة العبودية :

ويرجع السبب فى التطور السريع الذى شهدته العلاقات العبودية فى روما الى التأثير العميق الذى مارسته مجتمعات أخرى اكثر تطورا على المجتمع الرومانى منذ المراحل الأولى من قيامه .

ان غالبية لها اهميتها من الرومان وهم البليبيائز (اى أسرى الحرب السابقون وسكان المناطق الخاضعة والمهاجرون النازحون بارادتهم) والذين كانوا احرارا دون التمتع بأى حق سياسى ، قد امتزجوا على نحو تدريجى بالعائلات غير الارستقراطية التى دفعت الى الدفر المدقع .

نضال الشعب ضد الارستقراطية :

ولقد شن البليبيائز مستندين الى تأييد المواطنين الفقراء نضالا مستميتا ضد الارستقراطية العشائرية ، وضد الأشراف النبلاء . وقد اقترن هذا النضال بالالغاء المتزايد للملكية انتهى الى الانهيار الكامل للنظام العشائرى ، وشرع مجتمع مواطنى المدينة يشتمل كل من يملكون الأرض بغض النظر عن

أصولهم البليبيانية أو الرومانية . ومن ثم أصبحت الثروة هى المبدأ الأساسى للانقسام الاجتماعى وبينما اندمجت الفئات العليا من البليبيانز فى الاشراف أخذت الفئات الدنيا منهم تعانى مزيداً من الفقر حتى أن انهيار الملكية فى سنة ٥٠٩ ق.م وحلول الجمهورية محلها لم يفيد هذه الجماهير بشىء .

العهد الجمهورى المبكر :

وقد أدى التطور الاقتصادى الى مضاعفة دور عمل العبيد ومن نتاج ذلك أن الدولة تحولت اكثر فأكثر الى جهاز للسيطرة الطبقية فى يد ملاك العبيد وغيرهم من المراتب الثرية .

ولقد كانت السلطة العليا فى الجمهورية الرومانية فى يد مجلس الشيوخ ، فقد اعقب طرد آخر الملوك نشوء مجلس من حاكمين يتمتعان بحقوق متساوية (كانا يسميان فى أول الأمر بالبرايتورز ثم فيما بعد بالقناصل) . وكانا يرأسان مجلس الشيوخ ويتوليان امرة الجيش ، ثم ظهر فى الوجود على نحو تدريجى مجالس من درجة دنيا سميت بالكوايستورز ولايديلز ، لكن هذه المناصب كانت شرفية فاعتاد شغلها أفراد من الفئات الثرية كما كان حق شغل أى منصب عال فى الحكومة او الدخول فى مجلس الشيوخ قاصرا على النبلاء والأشراف .

ولذلك فان النضال بين الأشراف والبليبيانز لم تنقطع ابدا .

وتمكن الأخيرون من اكتساب عدد من التنازلات كان من اهمها الغاء الاستعباد بسبب الدين ، ومنها كذلك السماح لهم بدخول أعلى مجالس القضاء ، وكفالة انشاء مكاتب للمحاكم الشعبية على أن يتم انسحابها من البليبيانز وحدهم ثم منحوا حق الاعتراض على قرارات مجالس الأشراف ، اذا ما تعارضت مع مصالحهم .

وقد أدى الصراع بين الاشراف والبليبيائز (العامة) الى استكمال انقسام المجتمع وفقا لفروق الملكية ، فاندمجت بقايا عشائر الاشراف والفئة العليا من البليبيائز فتشكلت منهما فئة جديدة متمايزة هى فئة النبلاء . وهنا تعدت كلمة البليبيائز ، معناها القديم لتقتصر على أدنى فئات الشعب المستغلة .

واتسمت السياسة الخارجية لأقدم الجمهوريات فى التاريخ (ما بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد) بالحروب المستمرة تشنها روما للسيطرة على شبه جزيرة الابنين .

وفى هذا الوقت كان تشكيل المجتمع والدولة العبوديان قد اكتمل .

العصر الذهبى للمجتمع العبودى :

وبالانطلاق من تطور العلاقات العبودية ومن المحاولات المتزايدة المستمرة التى بذلتها الطبقة الحاكمة لحل المشكلة الزراعية عن طريق استعمار مناطق جديدة نشأت السياسة العدوانية للدولة الرومانية التى بدأت تسعى الى مجالات جديدة للنشاط فيما وراء شبه جزيرة الابنين ، وأدت الحملات التوسعية التى شنت الى تمكين الرومان من اخضاع قطاع كبير من شمال افريقيا والبلقان وآسيا الصغرى واسبانيا ومنطقة بلجيكا الحالية .. الخ ، وتحويلها الى مقاطعات رومانية ومصادر لاثراء الطبقة الحاكمة مالكة العبيد ، وفى نفس الوقت لكفالة فيض هائل متدفق من العمل العبودى الرخيص للغاية .

سيادة العمل العبودى :

وقد أدى انتشار عمل العبيد الى استبعاد العمل الحر ، الأمر الذى انعكس بشكل خاص فى الزراعة ، أهم مجالات الانتاج

فى روما . وقد أدى الاستخدام الواسع النطاق لعمل العبيد الى قيام مزارع اللاتيفونديا الواسعة التى كانت محاصيلها تخصص أساسا للسوق . وهنا ونتيجة لحرمانهم من وسائل المعيشة تحول الفلاحون على نحو تدريجى الى مستأجرين عند كبار الملاك أو الى الاندماج فى صفوف سكان المدن حتى أن جزءا منهم أصبحوا حرفيين بينما انتهت الغالبية الى خلق فئة جديدة هى العناصر التى لا طبقة لها ، عناصر الفولجاس المتجولون أو الرعاع الذين راحوا يعيشون على العطايا الزهيدة التى اختارت الطبقة الحاكمة تقديمها لهم .

وكان القرن الثانى قبل الميلاد هو نقطة التحول فى تطور القطاع العبودى لأن العبودية كانت فى هذا الوقت تتحول الى الشكل الأساسى للانتاج الاجتماعى .

نمو رأسمال التجارة والرأسمال الربوى :

وتطورت تجارة العبيد الى درجة كبيرة فتأسست أسواق عديدة للعبيد فى روما الى جانب المراكز التجارية الأخرى .

وسيطرت التجارة الخارجية على السوق الداخلية وكانت « المقاطعات » الرومانية العديدة هى المناطق التى أخضعت بالقوة فراحت تمد العاصمة الاستعمارية بالمنتجات الزراعية والكماليات والأدوات المعدنية والنبيذ وزيت الزيتون .

وأدى هذا التطور التجارى بالاضافة الى تداول النقود الى تطور الربا ، وظهرت الى الوجود شركات جامعى الضرائب (العشارين) الذين اشتروا حق جباية المكوس .

وعلى نحو تدريجى اندماج التجار والقائمون بتسليف النقود

فى فئـــة جـــديدة من فئـــات الطبقـــة الحاكمة عرفت بالكابالارى اى الفرسان .

اشتداد الانقسامات الداخلية فى المجتمع الرومانى :

وبقـــدر ما اشتد استغلال العبيـــد وزادت وحشـــيته بقـــدر ما احتـــدم الانقسام الأساسى فى الدولة الرومانيـــة منعكســـا فى العداء بين الملاك والعبيد ، المنتجين المباشرين لكل القيم المـــادية ، هـــذا العـــداء قـــد وجـــد تعبـــيره فى الهبات المتتاليـــة المتلاحقة التى قام بهـــا العبيـــد ، والتى كان من أهمهـــا تلك الهبة التى قادها سبارتاكوس العبـــد والمصارع .

فالمصـــارعون الذين كانوا رجال سيف محترفين كانوا يجبرون على قتل بعضهم البعض لتســـلية ملاك العبيـــد . ولقـــد كانت حياتهم شاقة مليئـــة بالمصاعب والحرمان يمكن ابتسارها فى اية لحظة . وفى عام ٧٤ قبل الميـــلاد نجح مجموعة من العبيـــد وعلى راسهم سبارتكوس فى الهروب من مدرسة للمصارعين فى كابوا لا ئذين بجبل فيسوفيوس . ولم يكونوا يزيدون عن بضع عشرات لكنهم سرعان ما تحولوا تدريجيـــا الى جيش قوامه ٦٠ الفـــا نظموه على النمط الرومانى فاثار الفـــزع والرعب فى قلوب ملاك العبيـــد .

ووقف الفـــلاحون الاحـــرار الى جانب هـــؤلاء العبيـــد الذين تمكنوا بفضل عبقرية سبارتاكوس وبفضل بطولتهم التى لا تعرف الاذعان من انزال سلسلة من الضربات القاصمة بالجيش الرومانى ، بل وقـــد ظلت الامبراطورية الى ســـنة ٧١ قبل الميـــلاد مسرح واحـــد من اعظم الحـــروب الاهليـــة فى التـــاريخ القـــديم ولم تتمكن الطبقـــة الحاكمة من كبت وتحطيم حركة العبيـــد هـــذه الا بتركيز كل قواها ، ومن هنـــا ظل النظـــام العبودى مؤسســـة

مستقرة ، فان العبيد لم يكونوا يملكون فى تلك الأيام البعيدة ، وبمعنى آخر لم يكن فى مقدورهم أن يملكوا ، على الرغم من القدرات العظيمة التى تمتع بها قادتهم برناجا واضحا لتحرير انفسهم ، كما أن الخلافات الداخلية فى صفوف العبيد انفسهم كانت من الأسباب الرئيسية فى الهزيمة التى حلت بسبارتاكوس .

ان لهذه الهبة على الرغم من نهايتها مغزى تاريخيا عظيما ، فقد وجهت الى النظام العبودى ضربة قاسية ، وأهم من ذلك أنها دعمت تقاليد الحركة التحريرية . وما زال اسم سبارتاكوس رائعا وما زال مبعث فخار فى صفوف الشعب العامل فى مختلف البلدان ، هذا الشعب الذى أصبح اسمه بالنسبة له رمزا للنضال الاستعمارى لتحرير الشعب العامل من نير الاستغلال .

هذه الفترة نفسها هى التى أصبحت العلاقات فيها بين روما ومختلف اقاليمها شديدة الامتداد ، اذ نشبت الحروب القومية ضد الحكم الرومانى ، كما اتسع نطاق المنازعات بين كبار الملاك الاثرياء والفلاحين الفقراء ، الا أن النظام العبودى على اطلاقه كان ما يزال على الرغم من كل هذه التمزقات بعيدا عن أزمته الحقيقية ، فان هذه الحروب لم تكن الا التعبير عن أزمة أصابت شكلا محددا من اشكال الدولة العبودية ، وهو الذى كان ماثلا فى الجمهورية الرومانية ، من أزمة كانت تنطوى على امراض الانهيار الذى كان مقدرا أن يحل بالمجتمع العبودى الرومانى .

انهيار الجمهورية وقيام الامبراطورية الرومانية :

وتعاظمت الأزمة داخل الجمهورية الى أن اتخذت فى أواسط القرن الأول قبل الميلاد شكل الحرب الأهلية التى اشتركت فيها أقسام واسعة من الطبقة الحاكمة .

أما السبب فقد كان فشل الجمهورية الرومانية المرتكزة على نظام دولة المدن فى كفالة الدور القيادى لملاك العبيد فى اطار

هـذه الامبراطورية الاستعمارية الشاسعة المترامية الأطراف ، وراح ملاك العبيد يتطلعون الى الديكتاتورية العسكرية باعتبارها الوسيلة الأساسية الناجعة لتدعيم حكمهم ، وأصبح فى وسع ملاك العبيد فى المقاطعات شغل مكاتب الدولة . وهنا اذن قامت الدولة العبودية الرومانية الجديدة باعتبارها حكما طبقيا لا لملاك العبيد فى العاصمة الرومانية وحدها بل كذلك لهؤلاء الملاك فى ايطاليا بأسرها بل وفى المناطق المفتوحة جميعها .

وقد بدأ هذا الشكل الجديد للدولة الرومانية فى ظل ديكتاتورية القيصر (النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد) وفى ظل ابنه المتبنى وخليفته الرسمى أوكتافيوس أوجسنوس (القرن الأول بعد الميلاد) .

ان النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد هو الذى يشكل مع القرن الثانى ذلك العصر الذى بلغت فيه روما أعظم درجات القوة والرخاء والاتساع الاقليمى .

انهيار الدولة العبودية الرومانية :

ان تداعى وسقوط مجتمع ما لا يمكن أن يكتمل بين يوم وآخر ، بل هو يتم فى عملية طويلة تتطور على نحو تدريجى ويحتد ويضعف من وقت لآخر . وعليه تكون أعراض تداعى الامبراطورية الرومانية قد بدأت تظهر فى وقت لم يبد فيه أن شيئا ما يتهدد هذه الدولة القوية .

من هذه الأعراض عرض بدا مبكرا فى أواخر القرن الأول بعد الميلاد وأوائل القرن الثانى ونعنى به الانحلال التدريجى الذى حل بنظام المزارع المبنى على عمل العبيد ، بعد أن لم تعد لهؤلاء أى اهتمام بنتائج عملهم ، الى أن انخفض مستوى الانتاج

بدرجة مروعة ، مما اجبر ملاك مزارع اللاتيفونديا على انشاء نظم معقدة للاشراف والاجبار على العمل ادت بدورها الى رفع تكلفة الانتاج .

ثم توصل كبار الملاك الاغنياء الى انه من الاجدى لهم والاكثر جلبا للربح تقسيم مزارعهم الكبيرة الى مزارع صغيرة على ان يقدموا الادوات الزراعية للعبيد ليعملوا بها مقابل نصيب من المحصول يقتطعونه لانفسهم ، فجزئت المزارع الكبيرة لتؤجر فى شرائح للفلاحين الأحرار الذى اطلق عليهم اسم المستعمرين (الكولونى) وكان البعض منهم يدفعون الايجار نقدا ، بينما الآخرون (وهم العدد الأكبر) يدفعونه عينا ، ثم راح هؤلاء الكولونى يتحولون تدريجيا الى فلاحين مستقلين ، اخذت صفوفهم تتسع على حساب الفلاحين الأحرار الفقراء والعبيد الذين يتحررون من الرق .

ومن الحوافز الأخرى طريقة تأجير الأرض للمنتج مقابل جزء من دخله .

ازمة النظام العبودى :

وتحولت اعراض الانهيار المعلق فوق رأس النظام العبودى والعلاقات الانتاجية المرتكزة على العبودية ، والتى اتضحت بشكل خاص فى النصف الثانى من القرن الأول بعد الميلاد الى ازمة حادة بحلول القرن الثالث بعد الميلاد لتمتد وتشمل المجتمع العبودى الرومانى بأسره .

وطرأت تغيرات بعيدة المدى فى اوضاع كل من الطبقتين

المتناقضتين : العبيد وملاك العبيد ، وعلى العلاقات فيما بينهما . وادى انعدام معدل الربح من عمل العبيد الى خلق الحوافز الدافعة الى تحريرهم . ويمكن القول هنا بأن الملاك قد اجبروا الى حد ما على التخلى عن أسلوب الالزام والقسر المباشر سعيا الى اثارة اهتمام العبيد بنتائج عملهم . وفى نفس الوقت كان الاستغلال الواقع على الفلاحين الكولون يشتد مما أحدث تطورات انتهت بالدماج العبيد والأحرار . وفى الكثير من الأحوال تحول الحائزون الصغار والمزارعون الذين كانوا يملكون بعض الوسائل المتوسطة الى كولون . واصبحت المدينة الرومانية شأنها فى ذلك شأن كافة المدن القديمة تعج باتحادات الملاك الأحرار ، الأمر الذى تسف الطابع العبودى للمدينة .

وقد دفع الفلاحون الأحرار الذين كانت الروابط توحدهم الى الى حافة الفقر المدقع ، ثم تراكمت الضرائب الباهظة مع انتزاع الأراضى من الملكية العامة انتزاعا اقترن به افقار غالبية سكان المدن ، لتنتهى الى تداعى وانهيار المدن الرومانية .

وجاء القرن الثالث بعد الميلاد بأزمة اقتصادية حادة تسببت فى تكثيف حدة المتناقضات الاجتماعية ، فبدا الكولون وصعاليك المدينة يهبون فى جماهير غفيرة ضد ملاك العبيد واشتد الميل الى الانفصال فى المقاطعات ، ونشبت المنازعات القاتلة بين مختلف المجموعات فى سبيل العرش وبدا الجيش يلعب دورا متزايدا فى هذا النضال عن طريق تقديم المساعدة للتكتلات المختلفة بالتناوب .

وفيما بين ١٩٣ ، ١٩٧ بعد الميلاد اندلعت الحرب الأهلية بين اقسام معينة من الطبقة الحاكمة لتفضى بالبلاد فى نهاية الأمر الى أزمتها السياسية الحادة .

التحلل النهائى الكامل لأسلوب الانتاج العبودى :

وقد شكل تطور نظام الكولونى ، واحدا من القسمات الأساسية التى افضت الى تحلل العلاقات الانتاجية العبودية . ففى القرن الرابع بعد الميلاد ، على أيام الامبراطور قسطنطين كان الكولونى مرتبطين بالأرض التى يزرعونها . وكان هذا الملاح يجبر أيا كان أصل آبائه على البقاء خاضعا دائما لمالك الأرض ، الأمر الذى حوله بالفعل الى انسان أسير ، لكن هذه العملية لم تكن قد تمكنت بعد من التحول الى نظام متكامل من العلاقات الاقطاعية ، لأن النظام السياسى العبودى كان ما يزال قيدا يكبح هذا التطور الاقطاعى .

واصبحت القنانة مصيرا لا للكولونى وحدهم بل كذلك لروابط الحرفيين ، وقد اقترن بها الافقار المستمر لسكان المدن .

وكان لتحلل وانقراض أسلوب الانتاج العبودى آثار بعيدة المدى على العلاقات القائمة فى صفوف الطبقة الحاكمة نفسها ، فمان التدعيم المؤقت للدولة باعتبارها جهازا يساند المصالح الطبقية لملاك العبيد قد اعقبته الفرقة السياسية اذ كان ملاك الأرض الأثرياء يزدادون استقلالا عن السلطات المركزية ، ووضع الفلاحون الأحرار أنفسهم فى حماية هؤلاء الملاك مستعيذين بذلك من الافقار الكامل ليجدوا أن قيودهم تشتد وتتعاظم بذلك .

وانتهت الهيئات الجماهيرية القوية الى اضعاف حكم ملاك العبيد ، والتحمت الأزمتان السياسية والاجتماعية ، ومن الأدلة ذات الأهمية القائمة على ذلك تقسيم الامبراطورية الرومانية فى سنة ٣٩٥ الميلادية الى امبراطوريتين : شرقية وغربية .

الثقافة والأيديولوجيـة فى اليونان القديمة وروما :

وقد بلغت الحضارتان الأغريقيـة والرومانية واللتـان تقدمتا وتطورتا خـلال عد من المراحل شاوا لم يشهد العـالم القـديم مثيلا له من قبل . وقـد مارستا نفوذا وتأثيرا خالدين على ثقافة عـدد كبير من الشعوب ، لكن تدعم وازدهار النظـام العبودى فى اليونان القديمة وروما هو الذى وسع من الهوة التى قامت بين ايديولوجية الكل المستغلة والأيديولوجية الرسمية التى اعتنقتهـا الطبقـة الحاكمة ، كمـا أن الصراع بين مختلف المجموعات التى نشأت فى نطاق الطبقة الحاكمة (بين الارستقراطيين والديمقراطيين ، بين انصار الامبراطورية وانصار الجمهورية) قـد وجد انعكاسا له فى مختلف الاتجاهات الأيديولوجية عامة وفى الفلسفة على وجه الخصوص .

فقـد نشب خلال تاريخ اليونان القديمـة وروما بأسره صراع لا ينتهى بين الاتجاهين الفلسفيين الرئيسيين : المـادية والمثالية . وبينما تواجدت المثالية كأيديولوجية دينيـة مسيطرة ، منذ المراحل الأولى لتطورهما انبثقت المـادية اتجاها فلسفيا ينكر الأصل الالهى للانسان والطبيعـة . وقـد راح فلاسفتها يسلكون مختلف الطرق لتفسير المفهومين الأساسيين لفلسفتهم : الأساس المـادى للكون وقدرتنـا على معرفتـه بحواسـنا .

وقـد كان اتباع المدرسة الأيونيـة التى اشتقت اسـمها من منطقـة ايونيـا ، هم الذين قدموا أول تعبير عن الاتجاه المـادى فى الفلسفة الأغريقية . ويعتبر طاليس وأناكسيماندر وأناكسيمنز فيلسوفين طليعيين لهـذه المدرسـة . ثم جاء هرقليطس فى القرن السادس قبل الميلاد ليطور افكارهما ويعلم الناس أن النـار هى الأساس المادى لكل شىء . ثم تكفل عـدد من فلاسفة الاغريق

القدامى المنتمين الى المدرسة المادية (ليوسيبوس وديمقريطس على سبيل المثال) بتقديم فكرة البنية الذرية للمادة . وكان من معتقداتهم أن الذرات وهى جزئيات صغيرة لا يمكن تقسيمها ، هى التى تحدد اذا ما اخذت فى تضاعفاتها التركيبية وتنوعها ، وحدة وتنوع العالم .

هذه الأفكار طورها الى مدى ابعد المفكر الاغريقى ابيقور والشاعر الرومانى لوكريطس .

أما وجهة النظر المثالية فقد كان من دعاتها واعمدتها العالم الرياضى الاغريقى فيثاغورس واتباعه المديدون (القرن الخامس قبل الميلاد) . وقد راحوا يفندون فكرة التركيب المادى للعالم ويطرحون فكرة الرقم باعتباره جوهر كل الأشياء ، وكانوا يعتقدون ثمان الدين نفسه بخلود الروح .

وقد كان سقراط وافلاطون اعظم الفلاسفة المثاليين الاغريق (الخامس والرابع قبل الميلاد) . وقد نادى فلاطون الذى كان من اتباع سقراط بأن كل المواد والظواهر المحيطة بالعالم ليست الا انعكاسا باهتا وضعيفا لمثل خالدة لا تتغير . الا أن أفلاطون لم يكن يحارب الماديين بالاستناد الى فلسفته وحدها ؛ بل كان يتهم اتباع ديمقريطس بالجرائم التى كان الاعدام عقوبتها وفقا لقوانين اثينا ، بل وقد هدد بشراء وحرق كل مؤلفات ديمقريطس . أما السبب الذى دعا الى قيام هذا الصراع المستميت بين المجموعتين فهو أن الماديين كانوا على العموم ، دعاة للأفكار التقدمية والديمقراطية ، بينما كان المثاليون يجدون المساندة من القوى الرجعية والارستقراطية .

وقد شغل ارسطو (القرن الرابع قبل الميلاد) ، مكانة هادئة فى الفلسفة القديمة . وتقوم شهرته رغم انه لم يكن ماديا متماسكا

على انتقاده الشديد والمعقول لنظريات افلاطون .

العلم :

لم يكن العلم الذي عرف اثناء تشكيل دول المدن الاغريقية قد انقسم بعد الى فروعه المعروفة ، بل كان يشمل كل مناحي المعرفة . والسبب هو ضآلة قدر المعرفة في ذلك الوقت ، هذه الضآلة التي نتجت بدورها من ان القوى الانتاجية كانت ما تزال متخلفة . ولم يؤدي التطور الاقتصادي والسياسي في اليونان القديمة الى انشقاق مختلف العلوم : الرياضيات والفلك والطب والتاريخ والطبيعة .. الخ ، الا في القرن الخامس قبل الميلاد . وقد وجد هذا التطور دافعا جديدا من حملات الاسكندر العظيم والتي ادت الى اثراء متبادل بين الثقافات الاغريقية والشرقية . ان هذا العصر الهيليني الجديد هو الذي انجب للعالم رجال علم مشهورين من امثال الجغرافي هيرودوت والرياضي الميكانيكي ارشميدس وغيرهما .

وفي روما وجدت هذه الاتجاهات العلمية الاغريقية كل ترحيب ، فاصبحت هناك اساسا لمزيد من التطور . ويعتبر ماركوس تيرينتيوس فارو الذي عاش في اواخر العهد الجمهوري واحدا من اعظم ممثلي الفكر العلمي في روما . وقد اشتهر بتاليف دائرة كبيرة للمعارف العلمية وعداد كبيرا من المقالات في العديد من فروع العلم بداية من اللغويات الى الهندسة الزراعية .

كما اشتهر الرومان بدورهم البارز في ميدان القانون وفقه التشريع .

وما زالت مؤلفات كثيرة في التاريخ وعلم السلالات البشرية من التي وضعها مؤلفون مرموقون من امثال يوليوس قيصر

وسالوستيوس وتاسيتوس وبلوتارخ وابيان ذات اهمية بالغة الى ايامنا هذه .

الفن :

وقد ساهمت اليونان القديمة وروما فى اغناء العالم باعمالها الفنية الخالدة وبما قدمتاه من كنوز للحضارة العالمية .

وما زالت النماذج الاولى من الاعمال الادبية الاغريقية مثل الاساطير والاليـاذة والاوديسا (هومير) تثير اعجاب القارىء المعاصر بفكرها العميق وشكلها السليم وتصويرها الواقعى للعواطف والمثل والآمال الانسانية (بغض النظر عن اخيلتها الوهمية واطارها الدينى) .

وما زال الادب الاغريقى القديم يعيش الى ايامنا هذه فى اعمال الكثيرين من امثال ارستوفانيس مؤلف العديد من المسرحيات الكوميدية الساخرة وسوفوخليس واخيلوس وايوريبيديس الذين ابدعوا تراجيديات عديدة ، ومن امثال كاتب الحكايات والأساطير ايسوب .. الخ . ولا بد لنا ان نشير هنا بشكل خاص الى كتاب هسيود : « الاعمال والايام » ، والذى يصف فيه باحساس عظيم ، الحياة اليومية والعمل اليومى لمزارع من عامة الشعب .

ولم يكن الادب الرومانى مجرد تقليد للأدب الاغريقى والهيلينى ، بل لقد ابدع هو نفسه العديد من الاعمال الادبية المثيرة للعجب ، الأصيلة فى الموضوع وفى الأسلوب . ومن أدلة ذلك ان للشعراء الرومانيين كاتولوس وفيرجيل واوفيد وهوراس مكانة عالمية مشهورة حتى ان اعمالهم اثرت بعد قرون طويلة فى شعراء

اوروبيين عظماء مثل دانتى (ايطاليـا) وبوشكين (روسـيا) ، وميكيفيتش (بولنـدا) . أما الروايات كشكل خاص من الادب ، ومن امثلتهـا : (الجحش الذهبى بقلم ابوليوس والساتيركون بقلم بيترونيوس) ، فقـد انتشرت بشكل خاص فى روما .

كمـا أن الفن المسرحى قـد بلغ ذرى عاليـة من التطور فى اليونان القديمة وروما . ففى اثينـا على سبيل المثـال أصبح الفن المسرحى جزءا لا يتجزأ من الحيـاة الاجتماعية . أما روما فقـد شهدت أداء مسرحيـا فنيـا بالغ الرقى ، الى جانب الأشـكال البربرية من الثقافة العبودية والتى عبرت عنها مصارعات العبيد . فان الرومان كانوا يرفهون عن أنفسهم بمشاهدة المصارعات التى كان العبيـد يقتتلون فيهـا بين هتافات وتهليل النظارة .

ومما يذكر ان الخطابة شغلت مكانة خاصة فى الحياة الاجتماعية فى كل من اليونان القـديمة وروما ، فتطورت الى درجة عاليـة فى خطب ليزياس وديموستين (الاغـريق) وشيشيرون (روما) ، والذين اشتهروا بمقدراتهم الخطابيـة الرفيعـة .

اما النحت الاغريقى والرومانى فمشـهور الى درجة لا تحتاج منا الى كلمة واحـدة نذكرها .

كما بلغت الموسيقى والرقص فى اليونان القديمة شأنا أعظم منها فى روما .

ومن الممكن لنـا اعتبـار ثقافة الامبراطورية الرومانية تمثـلا عضويا للثقافات الأغريقية وثقافات العالم الهيلينى وروما نفسها . فان ثقافة رومانيـة هيلينيـة قـد انتقلت هنـاك وراحت تتطور فى القرون الأولى من حيـاة هـذه الامبراطورية ، ولكن القرنين الرابع والخامس الميلاديين واللذين يشكلان عصر الأزمة القاسية

التى نزلت باسلوب الانتاج العبودى قد حلا ليشهدا التحلل التدريجى للمستوى الثقافى العام فى هذه الامبراطورية بفضل الديانة المسيحية التى لعبت دورا هاما فى هذا الصدد . فهى من ناحية قد استفادت من بعض مكونات الحضارة الاغريقية الرومانية بينما شنت من الناحية الأخرى حربا مدمرة على اعمال النحت التى تصور الجسم البشرى « الآثم » وعلى كل الاتجاهات الفلسفية وكتب « الزندقة » والأعياد والاحتفالات « الشيطانية » .

نشوء المسيحية :

ولقد كانت حالة البؤس التى وجدت فيها الكتل والعبيد والكولونى والشعوب المقهورة ، هى العامل الأساسى فى ابراز المسيحية الى الصدارة ، فان ملاك العبيد كانوا يكبتون الحركات الثورية التى تشعلها الكتل المستغلة والقبائل والشعوب المقهورة من طريق المجازر الجماعية الدامية . واحس الشعب باليأس الأبدى من الحرية فى هذا العالم ، الأمر الذى ادى الى رواج العبادات الشرقية القديمة التى بشرت الشعب بحياة افضل فى العالم الآخر . وقد استطاعت المسيحية الصاعدة امتصاص وتمثيل العديد من العناصر المكونة لهذه الديانات القديمة . وكانت فى بدايتها دينا للمقهورين والبؤساء (التعابى) لكن سرعان ما لحق بهؤلاء ، فى الايمان بالمسيحية قطاع من اغنياء المجتمع الذين كانوا لسبب أو لآخر فى صفوف المعارضة ضد الحكام القائمين ، وسريعا ما اختفت بساطة الجماعة المسيحية والمساواة بين كافة أعضائها ، ذلك أن تركيز الثروة فى ايدى الطائفة والطابع المعقد المتزايد الذى اكتسبته الطقوس قد اديا الى انعزال قسم من قادة الطائفة هم الكهنة ، ثم تأسس جهاز كنسى اتسم بطابع هرمى معقد .

وما أن حل القرن الرابع الميلادى حتى كانت المسيحية قد اكتسبت صفة الدين الرسمى السائد . وهى قد اعلنت الحرب بعد أن كانت مضطهدة فى أواسط القرن الثالث على كل الديانات غير المسيحية وأتباعها .

سقوط الامبراطورية الرومانية :

ان القرنين الرابع والخامس الميلاديين هما اللذان شهدا التحلل النهائى للتشكيل الاجتماعى الاقتصادى الذى عرف باسم العبودية . ذلك أن عمل العبيد كان قد أصبح عقبة حقيقية أمام أى تطور جديد فى القوى الانتاجية . . وكانت الهندسة الزراعية قد اكتسبت فى هذا الوقت معرفة تكنيكية تكفى لتحقيق ارتفاع كبير فى الانتاجية الزراعية ، لكن تطبيق هذه المعرفة كان يتطلب موقفا متسما بالعناية والوعى من جانب الكادح ذاته ، الأمر الذى كان متعذرا ما لم يكن هو نفسه مهتما بنتائج عمله . وبهذا يكون التطور التاريخى نفسه هو الذى اثار مشكلة الانتقال الى علاقات انتاجية اخرى أكثر تقدما .

وكانت الهبات الجماهيرية المتصلة من عوامل اضعاف النظام العبودى ، ذلك أن المقاطعات الرومانية الجنوبية (أفريقيا الرومانية) كانت تمور بالحركات والهبات من جانب العبيد والفلاحين الأتباع والحرفيين طوال القرنين الرابع والخامس بينما تميز القرنان الثالث والرابع بهبات الشمال (الغال واسبانيا الشمالية) وكثيرا ما كانت تتخذ طابع التمردات العنيفة والحروب التحريرية .

وفى نفس الوقت كانت الامبراطورية الرومانية الغربية تتعرض للهجمات من القبائل المعادية المتاخمة وقد حاول الأباطرة فى اول

أمرهم انقـــاذ الوضع باللجوء الى الفرق الألمـــانية المرتزقة ، لكنهم سرعان ما تحولوا الى دمى فى أيدى رؤساء القبـــائل البربرية .

وفى سنة ٤٧٦ م تمكن أحـــد هؤلاء الرؤساء ـــ أودواسر ـــ من عزل آخر الأباطرة . ومن المتفق عليـــه اعتبار هـــذا التاريخ ميقاتا للانهيـــار النهـــائى الذى حل بالامبراطورية الرومانيـــة الغربية . ونظرا لأن أسلوب الانتـــاج العبودى كان قـــد وصل الى ذروته فى الامبراطورية الرومانيـــة فانه من الممكن اعتبار سقوط هـــذه الأخيرة من وجهة النظر التاريخيـــة العامة انهيارا للنظام العبودى نفســـه .

الفصل الثالث

المجتمع الاقطاعى :

وكما نمت علاقات الملكية العبودية فى داخل التكوينات المشاعية البدائية ، كذلك تشكلت العلاقات الاقطاعية فى داخل النظام العبودى ، فكل ملكيات الفلاحين تقريبا ، قد أصبحت بالفعل فى حوزة كبار الملاك الأثرياء حيث كان يجرى استغلال العبيد والفلاحين الأتباع (الكولون) فى مزارع كبيرة تعتبر بشائر للملكيات الاقطاعية الكبيرة .

بيد أن نشوء طريقة الانتاج الاقطاعية كان يقف عائقا فى طريقها النظام العبودى السائد . ولم يكن هناك الا الثورة الاجتماعية للقضاء على هذا النظام وفتح الطريق امام التكوين الاقطاعى الجديد ، الذى اصبح مرادفا عند المؤرخين الماركسيين للعصور الوسطى .

ويطلق على الحقبة المقترنة بولادة ونشوء العلاقات الاقطاعية الطور الأول من النظام الاقطاعى ، وهى معروفة بمطلع العصور الوسطى .

وفى أوروبا تمتد هذه الفترة من القرن الخامس حتى بداية القرن الحادى عشر ، وفى آسيا تختلف الصورة ، فترجع بداية ظهور العلاقات الاقطاعية فى الصين الى القرن الثالث ، وفى الهند الى القرنين الرابع والخامس ، وفى الجزيرة العربية الى القرن السابع ، واكتمل تكوينها فى القرن الثامن فى الصين ، وفى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فى معظم البلدان الأخرى .

وتعرف الحقبة التى نمى فيها الاقطاع بالطور الثانى فى تطور النظام الاقطاعى . وفى هذه الفترة حدث ثانى تقسيم عظيم للعمل ، فانفصلت الحرف عن الزراعة ، ونمت المدن وأصبحت مراكز تجارية حيث يمارس الحرفيون مهنهم . وامتدت هذه الفترة فى اوروبا من القرن الحادى عشر الى القرن الخامس عشر . وفى آسيا وشمال افريقيا تبلورت فيما بين القرن التاسع والقرن الحادى عشر واستمرت حتى القرن الخامس عشر .

اما الطور الثالث من تطور النظام الاقطاعى فيتميز بتحلل العلاقات الاقطاعية ونشوء الراسمالية ويعرف بأواخر العصور الوسطى ، ويمتد هذا الطور من القرن الخامس عشر الى منتصف القرن السابع عشر فى اوروبا ، هذا بينما ظلت العلاقات الاقطاعية لفترة اطول كثيرا فى بلدان آسيا وافريقيا نتيجة لتوسع الاستعماريين الأوروبيين . وعلى كل فيمكن اعتبار القرن السابع عشر كقرن انهيار الاقطاعية وبداية الراسمالية .

١ ـ بداية العلاقات الاقطاعية

(مطلع العصور الوسطى) :

وفى هذا الطور ظهرت السمات الأساسية لأسلوب الانتاج الاقطاعى مثل ملكية كبار الملاك الاقطاعيين للأرض ، والصور المختلفة للايجار فى الأرض كوسيلة للاستحواذ على ثمار عمل الفلاحين والحرفيين .

تطور النظام الاقطاعى فى اوروبا الغربية :

تمكنت القبائل الألمانية والسلافية القديمة من طريق الاتصال بالمجتمع العبيدى الرومانى من تطوير العلاقات الاقطاعية مباشرة

المشاعيـــة البدائيـــة . وفى فترة انحـــلال الامبراطورية مرت شعوب هـــذه القبائل بتجربة انقسام المجتمع رغم كونهـــا كانت ذات سمة ابوية بدائية جـــدا .

النزاع بين القبائل والدولة الرومانيـــة ، أصبحت هـــذه تواقة الى القضاء على سلطة الدولة الاخيرة .

غزو الامبراطورية الرومانيـــة الغربيـــة والبيزانطيـــة القبائل السلافية ، لقيت هذه القبائل المساندة من العبيد ، لانهم كانوا قـــد جلبوا معهم نظـــاما جـــديدا استفاد المحليين منـــه كثيرا .

ملكيـــة الاراضى والعبيـــد التى تقع اساسا فى حـــوزة الملاك الرومانيين الاثرياء ، ادخل الالمـــان شكلا أرق من الاســـتغلال العبودى اذا قارناه بالرومان ، وجلبوا معهم تنظيماتهم المشاعيـــة التى حسنت فى اول الأمر من حيـــاة المحليين الاحـــرار .

وحدثت عملية جمع بين الاشكال والتقاليد التى مارسها الجرمان فى النظام المشاعى وبين العنـــاصر الاقطاعيـــة التى ظهرت المجتمع العبودى المحتضر . والمزج بين كلتـــا العمليتين حافزا سريعا لنشوء علاقات اقطاعيـــة جديدة ، واستوعبت الالمـــانية مثل الفرانك الذين استوطنوا الاراضى المعروفة بفرنســـا ، استوعبت المســـتوى المرتفع من تطور القوى المميز للامبراطورية الرومانيا . ونتيجـــة لعـــددهم (بالمقارنة بالســـكان الأصليين للأراضى الرومانية) فقـــد على اتبـــاع النظـــام التقليدى فى ملكيـــة الأرض . ولكنهم الوقت ادخلوا حيـــاة جديدة فى المجتمع الرومانى المتحلل

وطوروا الانتاج ، وامتزج ملاك الأراضي الرومانيين الأثرياء تدريجيا بالارستقراطية الألمانية مما أدى الى ظهور طبقة حاكمة واحدة .

واضطر الفلاحون الذين دمرهم ملاك الأراضي الأثرياء الى تسليمهم قطع الأراضي الخاصة بهم واصبحوا تابعين لهم . وأعيدت الأراضي الى الفلاحين لا كملكيات ، بل كأراضي يعملون فيها طيلة حياتهم أو يورثونها .

وكان الفلاح يورد لمالك الأرض الذي يعمل لديه ، جزءا من محصول الأرض ويؤدي عددا من الالتزامات ، بينما يقوم مالك الأرض بحمايته من أية مطالبات لملاك الأراضي الآخرين . وكان الفلاح يحصل أحيانا على قطعة أرض اضافية بالاضافة لقطعة الأرض الواقعة في حيازته . وبهذه الطريقة حصل كبار ملاك الأراضي — وكانت الكنيسة من بينهم — (واعتنق الفرانك المسيحية في نهاية القرن الخامس) ، حصلوا على العمل الضروري لفلاحة اراضي جديدة .

ويرتبط التطور المضطرد للنظام الاقطاعي بالثورة التي حدثت في نظام ملكية الأرض في القرن الثاني .

فالأرض لم تعد تمنح كملكية خاصة ، واصبحت توزع بواسطة الملوك على الأشراف في مقابل الولاء العسكري ، وكان الأشراف يجندون الرجال المدربين من اقطاعياتهم ويقودونهم في المعركة . وكانت الأرض من هذا النوع يطلق عليها اسم العطايا والوسايا ولا يمكن توريثها . فقد كانت تمنح للانتفاع بها مدى الحياة ويمكن للملك ان يستردها اذا أخل حائزوها بالتزاماتهم العسكرية . وعند وفاة الحائز تعاد تلك الأرض الى الملك أو لورثته .

وفى القرنين التاسع والعاشر حدثت تغيرات أخرى فى نظام ملكية الأرض ، فاكتسبت أراضى الوسايا بالتدريج صفة الوراثة وأصبحت تعرف بالاقطاعيات ـ ويعرف النظام المرتبط بهذا النوع من الملكية بالنظام الاقطاعى . ويرتبط هذا النظام بشدة بالرق ، ذلك النظام الذى يجبر فيه كل حائز للأرض على أن يقسم يمين الولاء والطاعة لمالك الأرض الاقطاعى الذى يعتبر سيده بينما يتحول هو الى مجرد تابع له ، يحصل على الأرض من سيده فى مقابل الخدمة العسكرية التى يقدمها له .

وفى البداية كان نظام الأشراف لا يعمل به الا أفراد قلائل من كبار الملاك ، ولكن منذ النصف الثانى من القرن التاسع اكتسبت الأوامر الملكية هذا النظام قوة القانون .

وكان سلم الرتب وفقا لنظام الدولة السياسى فى تلك الفترة ، يقف على رأسه الأسياد الاقطاعيين (اللوردات) الذين كانوا يعتبرون أنفسهم اشراف يلون الملك مباشرة ، ثم يأتى من بعدهم ملاك الأراضى الأقل منهم ثراء ، وأخيرا اللوردات الاقطاعيين الصغار الذين كانوا يعرفون باسم الفرسان .

القوى الانتاجية للمجتمع الاقطاعى :

وفى ذلك الحين وصل تطور العلاقات الانتاجية الجديدة الى مستوى متطابق تماما مع البنيان الاقطاعى . وطالما ان القوى الانتاجية تلعب دورا رئيسيا فى العملية الانتاجية ، فانه من الأهمية القصوى تحديد مستوى تطورها فى فترة بداية النظام الاقطاعى .

ادى التطور فى استعمال الحديد الى حدوث زيادة فى استخدام المحاريث الثقيلة والخفيفة وغيرها من الأدوات الزراعية . وحدث

تقـــدم فى الزراعة : انتشر نظـــام زراعة الأرض بالدورة ال
وازدادت زراعة الكروم نتيجة لتحسن عمليـــات مصر ال
وادخلت ابتكارات تكنيكيـــة أخرى مثل طواحين الهواء ،
طواحين الميـــاه التى كانت مستعملة فى فترة النظـــام ال
حدث تحسين لهـــا أيضا — وظهرت الناعورة (وهى طار
يخفقها المـــاء وتدار بهـــا الرحى — المترجم) .

ومع ذلك ، فان التقـــدم الذى وصل اليـــه الانتـــاج
الاقطاع لم يلغى الطابع المحافظ للأدوات التكنيكيـــة ال
فى جميع أطوار تطور الاقتصـــاد الاقطاعى .

العلاقات الانتاجيـــة والملكيـــة فى ظل الاقطـــاع :

لكى نحـــدد العلاقات الانتاجيـــة الاقطاعية ، يجب
نعرف أولا من هو المـــالك لوسائل الانتـــاج ، كيف تم
الوســـائل ، كيف يوزع ناتج العمـــل ، وكيف تؤثر
العوامل على مركز المجموعات الاجتماعيـــة المتعـــددة
وعلاقاتهـــا المتداخلة فى عمليـــة الانتـــاج .

وفى الفترة الأولى من النظام الاقطاعى كانت الأرض
الانتـــاج الرئيسية وكان الحاكم أو اللورد الاقطاعى هو
ملكيـــة الفـــلاح الحرة للأرض نادرة . وعلى ذلك
القرون المشـــاعية الزراعيـــة على بقاءها كتنظيم اجت
يخـــدم مصالح الفـــلاحين . وكان اللوردات الاقط
أراضيهم بطريقتين ، وكانت أرض المزرعة مقسمة الى
فكوخ الفـــلاح والحديقـــة من حوله ، هى ملك له
المزرعة فكانت ملكيـــة للمشـــاعيـــة وكان يعاد بأ

بين أعضاء الكومبون لزراعتهـا ، أما الغـابات والمراعى وغيرها من الممتلكات فكانت لا تخضع للتقسيم وتخص الكومبون .

وتغير الوضع بالتدريج ، فلكى يحصل السيد (اللورد) على الفائدة من أرضه لجأ الى تعيين « خولى » ليتولى الاشراف على الأراضى المزروعة . وكانت الطريقة الأولى المستخدمة لادارة الأراضى ، هى أن يعمل الفلاحون للسيد (اللورد) فى اقطاعيته وكان اللورد محتكرا للأراضى ، وكانت الطريقة الثانية المستخدمة فى نفس الوقت ، هو تقسيم الأراضى الى مزارع للفلاحين ، ويزرع الفلاحون الأرض بدون أن يكون هناك « خولى » عليهم ، ويدفعون جزءا من المحصول كاتاوة للسيد (اللورد) ، أما الغابات والمراعى الخ .. فقد كانت ملكا للسيد (اللورد) ، ولكن منح للفلاحين — من خلال الكومبون — حقوقا معينة قبلها (رعى الأعشاب ، الصيد ، الحطب .. الخ) . وسنت قوانين اقطاعية تمنع الفلاح من ترك اقطاعية السيد (اللورد) ، أى أنه أصبح رقا .

وهاذان النظامان من انظمة استغلال الفلاحين ، أدت الى أن يسود الانتاج السلعى الصغير ، واصبحت القوى الانتاجية مبعثرة ، واعاق هذا من نمو الاقتصاد الاقطاعى الذى ساد على صورة ما المجتمعات ذات الاكتفاء الذاتى ، مثل هذا النظام الذى يعرف بالاقتصاد الطبيعى ، وينطبق تماما على الظروف فى مستهل القرون الوسطى .

وفى ذلك الزمان كان الاقتصاد ذا الاكتفاء الذاتى يتطلب أن تنتج كل اقطاعية جميع وسائل الاعاشة الفردية للسيد اللورد (الزمنى أو الكنيسة) ولرقيقه . وكانت الأراضى الملكية ينفق منها على الملك وبلاطه . وادى الانحدار الاقتصادى للنظام العبودى ، الى انفصال الحرف البدوية عن الزراعة ، واعاد

الوحـــدة اليهمـــا انهيـــار الامبراطورية الرومانيـــة ، حتى اصبح فى قدرة الانتـــاج المحلى تلبيـــة احتياجات اللورد ورقيقـــه . وعلى وجه التقريب فان كل البضائع التى يتم انتاجهـــا فى الاقطاعية يتم استهلاكها داخليـــا ، بينما كانت تتم عمليـــات المقايضة لجزء صغير من الانتـــاج الحرفى .

وكان السيد (اللورد) يستحوذ على انتـــاج عمل الفلاحين فى شكل الريع الاقطاعى ، الذى كان يمثل فى ظل النظـــام الاقطاعى الهـــدف من عمليـــة الانتـــاج كلهـــا .

وبتطور الاقطاع نشأت انماط مختلفة من انظمة الريع الاقطاعى. وكان احـــد الأشكال الأولى هو الوفاء بالريع عن طريق اداء الخدمة (العمل الاجبـــارى) حيث كان الفلاح يجبر على تكريس جزء كبير من وقتـــه فى زراعة أراضى اللورد . وكان يجبر ايضـا على القيـــام بمختلف اعمال الانشاء والبنـــاء فى الاقطاعيـــة ، ونقل البضائع والمشاركة فى العمل الحرفى .

وبنمو انتاجيـــة عمل الفلاحين ، وجـــد اللورد الاقطاعى انه سيكون مربحا اكثر له ازاحة حمل الانتـــاج والقـــائه على كاهـــل الفلاحين . واصبح الريع يدفع بشـــكل عينى . وهكذا نشـــأ نمط آخر من الريع الاقطاعى ، وكان ما يدفع مقابل الانتفاع بالأرض والأدوات الزراعية التى يقدمها اللورد الاقطاعى ، يمثل الجزء الأكبر من الريع المفروض على الفلاحين ، وكانت هذه الالتزامات المفروضة مقابل الانتفـــاع بالأرض تحتوى على ما يدفع مقـــابل استخدام المراعى والمروج وغيرها من الأراضى التى كانت ملكية مشاعية قبل ذلك ، ولكنها اصبحت مؤخرا ملكيـــة للاقطاعيين .

وفى مستهل القرون الوسطى كانت الخدمة الاجبارية هو نظام الايجار (الريع) الأكبر انتشارا بينما كان الدفع العينى هو الاستثناء .

وبنمو المدن كمراكز للتجارة والحرف ، أعطيت أهمية كبرى للايجار النقدى ، فلقد أصبحت مصالح اللورد ليست محدودة بحدود اقطاعيته الخاصة ، فلكى يستطيع شراء البضائع التى تنتج فى الأماكن الأخرى ، فلقد وجد أن دفع الايجار نقدا أمرا مدرا للربح أكثر .

وبتطور نظام الايجار العينى والنقدى ، فان الجزء الأكبر من الريع الاقطاعى كان يدفع من أجل الانتفاع بالأرض . غير أن الريع أو فائض المنتج الذى يستحوذه السيد (اللورد) ، كان يشمل عددا من الالتزامات الأخرى تتخذ فى معظمها شكل الضرائب والاتاوات . وتتشكل فى المحل الأول من ضريبة الرأس على الرقيق ، ومن الغرامات الادارية والقضائية ، وعلى سبيل المثال فان ضريبة الرأس فى فرنسا كانت عبارة عن ضريبة عامة تفرض على كل فرد فى أسرة الرقيق .

وفى بعض المناطق ، كان السيد (اللورد) يمتلك أيضا « حق تمضية الليلة الأولى » مع العروس الجديدة لرقيق الأرض . ولكن هذا الحق حل محله مؤخرا دفع ضريبة عينية أو نقدية ، كذلك فرضت أيضا ضريبة على الرقيق مقابل حق الارث . وغالبا ما كانت أفضل أنواع رؤوس الماشية ، أفضل الحلل أو أحد الأدوات المنزلية الهامة ، تقدم الى السيد (اللورد) الذى كان فى استطاعته أن يفرض بمحض ارادته ضرائب اخرى على الرقيق (ضريبة على الحق فى الزواج ، أو تغيير المكان أو الاقامة ، أو نقل الممتلكات الشخصية .. الخ) .

ولم يكن الأسياد يعتبرون التبعية الشخصية والقضائية والادارية للإقنان مجرد وسيلة للحصول على دخل اضافى . فنظام الالتزامات مقابل الأرض كان يحتوى فى حد ذاته على عناصر نظام التبعية الاقتصادية الاقطاعية . ولكن طالما كان لدى الفلاحين ممتلكاتهم وأدواتهم الخاصة فلم يكن هناك مفر من اللجوء الى أشكال معينة من القهر غير الاقتصادى لاجبارهم على تسليم الجزء الأكبر من انتاجهم الى الأمير الاقطاعى الذى يصبح فى هذه الحالة السيد المطلق فى نطاق منطقته وتوضع فى يده سلطة قضائية وادارية واسعة . وتتدرج التبعية الشخصية للفلاحين من وضع التنانة الكاملة الى التفاوت فى المراتب .

وهكذا فقد كان القهر غير الاقتصادى أحد الملامح الأساسية للأسلوب الاقطاعى فى الانتاج .

وفيما بين قبائل الفرانك نشأت التبعية الشخصية للفلاحين عندما تملك كبار الملاك الأغنياء أراضى الفلاحين والمشاعات . واذ أصاب الفلاحون الأحرار من قبائل الفرانك الدمار والفقر فقد اضطروا الى البحث عن الحماية (الولاية والرعاية) عند جيرانهم الأقوياء لانقاذ حياتهم وبقايا ممتلكاتهم .

الدولة الاقطاعية القديمة :

تطورت الأشكال المختلفة من تبعية الفلاحين الشخصية والقضائية والادارية بشكل خاص جنبا الى جنب مع الأشكال المختلفة لنشوء الدولة الاقطاعية التى كونت البناء العلوى للدولة الاقطاعية . وفى البداية كانت المهمة الأولى للدول الاقطاعية القديمة (المملكة الفرانكية وغيرها من الممالك البربرية هو قمع هبات العبيد والكولونى فى الأقاليم التابعة وجمع

من السكان المحليين فى ايطاليا والاقاليم الرومانية ، بعد اصبح هدف الدولة الاقطاعية هو الابقاء على فلاحيها الذين كانوا احرارا ثم اصبحوا اقنانا واستغلوا هذا الأساس . وكانت الدولة الاقطاعية القديمة ثابتة فى مهمتها الأساسية ، وهى ضمان سيطرة ملاك الأراضى .

واتخذت الدولة الفرانكية الاقطاعية شكلها النهائى فى الثامن والتاسع . وكانت الملامح الأساسية للدولة هو الاقطاعى والاستقلال السياسى لعدد من ملاك الأراضى

التناقض الأساسى فى المجتمع الاقطاعى :

حافظ أمراء الاقطاع على دخلهم عن طريق اسوا للفلاحين (الذى اضيف اليه فيما بعد استغلال الحرفيين كانوا المنتجين المباشرين لجميع البضائع المادية . وزاد باطراد ، وكانت العلاقات بين الطبقتين الأساسيتين فى الاقطاعى ـ ملاك الأراضى والأقنان ـ عدائية فى وقائمة على التعارض الجذرى فى المصالح الطبقية ، الأقنان يكونون غالبية السكان ويستغلهم ملاك الأراضى اقلية ضئيلة كانت تمتلك كل الأراضى .

ووجدت فئات اجتماعية اخرى مثل الحرفيين جنب مع الطبقات الاقطاعية الأساسية . وكانت الصفة للمجتمعين العبودى والاقطاعى وجود فئات مختلفة ، عديدة لها أوضاع قانونية متنوعة . وفى بعض الحالات الطبقة الواحدة تشمل عددا من هذه الجماعات (كانت السائدة فى العصور الوسطى تتكون من لوردات روحيين وفى حالات اخرى نجد أن فئة واحدة (الفئة

فى فرنسا) تشمل ممثلين لفئات مختلفة ظهرت فيما بعد كطبقات منفصلة وفئات طبقية مثل الفلاحين والحرفيين والتجار والمرابين .

وتم التحول الشامل للفلاحين الفرانكيين الأحرار الى فلاحين تابعين فى ظل صراع طبقى اتخذ اشكالا متعددة منها هروب الأقنان من اسيادهم ومنها الهبات المسلحة . ولم تستطع تلك الهبات أن تنجح بسبب التلقائية وعدم الوحدة ، ومع ذلك فقد اجبر الصراع الطبقى المتواصل لجماهير الفلاحين الأسياد الاقطاعيين ان يضعوا التزامات محددة نحو الأقنان حمتهم الى حد ما من الاستغلال الذى لا حدود له .

وكلما تطور المجتمع الاقطاعى كلما بدأ نمو القوى الطبقية يلعب دورا حاسما فى سرعة تطوره .

وساعد البناء السياسى للدولة الفرانكية على ابقاء الجماهير خاضعة . وكان لدى الأسياد الاقطاعيين الأغنياء جيشهم الخاص تحت تصرفهم وكان الدور الحاسم فى قمع الثورات تقوم به السلطة الملكية التى كانت تمثل مصالح الطبقة الاقطاعية فى مجموعها .

كييف روس :

وفيما بين السلاف الشرقيين كان لتطور الطبقات والدولة فى الفترة ما بين القرن السادس والقرن التاسع ملامح خاصة معينة . وقبل أن تقع اراضى السلاف الشرقيين تحت سيطرة حكم الامبراطورية الرومانية ظل البناء الاجتماعى متخلصا من النفوذ المباشر للعلاقات العبودية . فقد بدأ تفكك المجتمع البدائى القبلى عند السلاف فى وقت كانت قد تحولت فيه الى الاقطاعية

حتى الدول التى كانت تربطهـا بهـا علاقات واهيـة . وهـكذا تخطت فترة الملكية العبودية فى التـاريخ ودخلت تكوينـا جديدا — هو الاقطاعية . وظهرت الطبقات الاقطاعية الأساسية فى القرنين التاسع والعـاشر ، واصبح الفـلاحون الأحرار تابعين للمـلاك الاقطاعيين ويلقون منهم استغلالا وحشيا .

وفى القرن التاسع وضع البوليـان وهم احـد القبائل السلافية المعروف باسم الروس اسس تشوء دولة قوية مركزها كييف . وفى القرن التاسع والعـاشر والحادى عشر تكون حلف قبـلى كبير بين السلاف الشرقيين فى القرن الحادى عشر وبداية القرن الثـانى عشر وأطلق اسم كييف روس على الدولة الجديدة . وكانت روس القديمة واحـدة من اكبر واقوى دول العصور الوسطى ، وكان اقتصادها ينمو بشكل سريع ، وكانت قوتها تعتمد على الاستغلال الوحشى للفلاحين والحرفيين الذى ادى الى حدوث كثير من الثورات والاضطرابات .

وفى ذلك الوقت كان الأمراء الاقطاعيون يقومون بجبـاية جميع انواع الأجور واجبر الفلاحون على دفع الأجر خدمة وعينـا .

وتطورت الحرف واصبحت تدريجيـا متميزة عن الزراعـة . واصبح الحرفيون الذين ظلوا فى القـرى فى وضـع التـابع للأمراء الاقطاعيين بينما اقام الآخرون خلف حيطان القلاع الاقطاعية مكونين جماعات مدنيـة ، وتطورت المدن واصبح مراكز للحرف . ومن هـذه الناحيـة كانت كييف روس متقـدمة كثيرا عن أوروبـا الغربيـة ، حيث ظهرت فيهـا المدن فى فترة متاخرة جـدا ، وهى عصر الاقطاعيـة المتطورة . ويشـهد التاريخ بوجود ٨٩ مدينـة فى روس فى القـرن الحـادى عشر ذات ثقـافة راقيـة ، وعلى سبيل المثـال نجـد أن الحفريات الأثرية فى نوفجورود قـد التت

الضوء على مئات من المواثيق مكتوبة بالحروف الروسية على لحـــاء شجر البتولا .

وكان لروس القديمة صلات تجارية واسعة ، فقد الروس مع بلاد فى الشرق والغرب ، وكانوا يظهرون كثيرا الخـــلافة العربية وبيزنطة وبوهيميـــا وبولنـــدا اسكنديناوا حيثكانوا يتاجرون فى الفراء والشمع والعسل والكتـــان والجواهر والأســـلحة ، كما كانوا يجلبون الزينـــة والنبيـــذ والفواكه والتوابل .

وفى القرنين الحادى عشر والثـــانى عشر أصبحت للدولة الروسية القديمة معترفا بهـــا على اوسع نطـــاق التجـــارة الخارجيـــة والعلاقات السياسية والثقافيـــة بلاد أوروبا الغربيـــة وبيزنطة .

وفى القرن الثانى عشر تسبب الغزو المنغولى فى الاقتصادى والسياسى لكييف روس ، وسهل الغزو نسبيا التفكك الاقطـــاعى واللامركزية . وساءت العـــلاقات فى آسيا فى مسالك مختلفة من طرق التطور كانت لكل بلد على حـــدة .

ظهور الاقطاعيـــة فى آســـيا :

يمكن أن يرجع ظهور العـــلاقات الاقطاعيـــة فى الصين الثالث (بل وتشير بعض الوقائع الى تاريخ أبعد من كان ذلك هو وقت ســـقوط امبراطورية هان توحدت البلاد تحت حكم سلالة تشين الجـــديدة . مميزة للتطور الاقطاعى فى الصين وهو تأسيس دولة الفردى للأرض والميـــاه . وكان ذلك الاجراء ، مثل

الدولة أثناء المرحلة العبودية ، مرتبطا بمركزة المشاريع العامة وتدعيم النظم الدفاعية . وفى ذلك الوقت اقيمت الأميال الأولى من الحائط العظيم .

وفى ظل حكم سوماليين (٢٦٥ — ٢٩٠) أول امبراطور فى سلالة تشن ، أدخل نظام الحصص كقانون . وطبقا لهذا القانون كان ما يعطى للفلاح يقسم الى قسمين . وكان المحصول الذى يعطيه الجزء الأول يستخدمه الفلاح لحاجاته الشخصية ، اما محصول الجزء الآخر فكان يعطى للدولة . وكان الفلاحون مسئولين أيضا على المحافظة على انتظام الرى ، والصرف واقامة الجسور . وكان ذلك مثالا اصيلا للايجار بالخدمة ، بينما كان العمل بالسخرة التى كان ينتفع بها ملاك الأرض هو الطابع المميز للنظام الاقطاعى فى اوروبا ، ولم تكن تمارس فى الصين الا نادرا . وتملك الأمراء الاقطاعيون مساحات قليلة من الأرض ، وكانت محاولاتهم لتحويل أملاك الدولة الى ملكيتهم الخاصة تبوء بالفشل .

اثر ظهور العلاقات الاقطاعية فى الصين على تطور النظام الاقطاعى فى اليابان وكوريا ، وتخطى كلا البلدان المرحلة العبودية فى التاريخ ودخلا الشكل الاقطاعى بعد النظام المشاعى البدائى مباشرة . وفى اليابان بدأت تتشكل العلاقات الاقطاعية فى القرن الرابع ، وفى ظل النفوذ الصينى بدأت الاقطاعية تظهر فى الهند الصينية فى القرن الخامس .

وفى الهند وجد المثل النموذجى للنظام الاقطاعى الذى يحتفظ بملامح من العبودية البدائية حيث كان النفوذ الأجنبى منعدما . فالعبودية الأبوية وجدت هناك جنبا الى جنب مع العديد من بقايا الجماعة القبلية البدائية ، رغم أن الشكل الأول هو الذى كان سائدا .

وقد ظهرت الاقطاعية فى الهند فى القرنين الخامس والسادس ، وظلت الكوميونات الزراعية منعزلة وتكفى نفسها بنفسها . وفى المدن عمل الحرفيون اساسا لاشباع حاجات ملاك العبيد النبلاء . وكانت التجارة تتم اساسا بين المدن الكبيرة .

وكونت الدول التى ظهرت على أراضى بلاد العرب مجموعة ثالثة من البلدان اتخذ طريقها الى الاقطاعية ملامح مميزة . وفى خلال الالف سنة الأولى والثانية قبل الميلاد توالى سقوط الدول العبودية العربية القديمة وظهرت دول جديدة باستثناء مملكة حمير (التى تشغل أراضى اليمن الحالية) والتى بقيت حتى القرن الحادى عشر بعد الميلاد . ولم يبق مدة اطول من ذلك الا بعض الدويلات العبودية (مثل مكة والمدينة) ، ومع ذلك فلم يتطور النظام العبودى فى الدول العربية وبدأت الاقطاعية فى الظهور فى القرن السابع . وتطورت بين القبائل الرحل على اساس تفكك الجماعة القبلية البدائية .

وفى جميع البلاد الآسيوية ظهرت الاقطاعية فى ظروف كفاح الجماهير المستميت ضد حكم القاهرين .

ظهور الاقطاعية فى افريقيا :

رغم أن ظهور وتطور العلاقات الاقطاعية فى بلاد شمال افريقيا وفى بلاد جنوب الصحراء كان يشبه كثيرا نفس العملية فى اوروبا وآسيا الا انه كانت له مع ذلك خصائصه المميزه .

وكانت الدولة الغانية من اقدم الدول الاقطاعية القديمة التى ظهرت فى حوالى القرن السابع بعد الميلاد فى مكان يقع بين النيجر والسنغال . واستقر فى ذلك الاقليم شعوب من جماعة تتحدث

بلغة السائدا . ولم يتم الى الآن دراسة كاملة للتكوين الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع الغانى . ونحن نعلم انه على راس الدولة وجد حكام اقطاعيون ، وانه حول نهاية القرن الثامن اصبحت سلطة الدولة مركزة فى ايدى اسرة سايس تونكارا . وتشهد حقيقة ان السلطة الملكية كانت موروثة تبعا لخط السلالة الانثوى (من الخال الى ابن الاخت) على استمرار بعض بقايا التكوين المشاعى البدائى . واستمرت ايضا عناصر من العلاقات العبودية ، فقد أسرت اعداد جديدة من العبيد عن طريق الحملات التى أرسلت الى الأراضى المجاورة ، ومارس الحكام الغانيون ذلك على اوسع نطاق .

وبدا التقسيم الاجتماعى للعمل اقل اهمية بسبب سيادة التجارة الخارجية على التجارة الداخلية . وقامت التجارة اساسا مع بلاد افريقيا الشمالية ، وكان الملح والذهب مواد التصدير الأساسية .

واصبحت جينى والمدن الغانية الأخرى مراكز تجارية كبيرة . وساعد تطور المدن فى ذلك الجزء من افريقيا على نشر الثقافة ، وعلى الأخص اقامة المدارس .

٢ ـ عصر الاقطاعية المتطورة

نمو الحرف والتجارة :

من الظواهر المميزة للاقطاعية المتطورة ظهور المدن وتطورها كمراكز للحرف والتجارة ومراكز للانتاج السلعى . وقد بدأ انفصال الحرف عن الزراعة فى المجتمع المشاعى البدائى واستمر طوال النظام العبودى ، ثم توقفت تلك العملية بالانهيار الاقتصادى للدول العبودية الذى ادى الى سقوطها . وعند نهاية

النظـــام العبودى لم تكن المدن تمثل مراكز للتجـــارة والحرفة ، وتعتبر بعض المدن فى آسيا وأفريقيـــا الشماليـــة استثناء من تلك القـــاعدة .

فتحت الاقطاعيـــة امكانيـــات جديدة أمام نمو القوى الانتاجية التى أدت بدورها الى تطور جديد للتقسيم الاجتماعى للعمل ـ بين الزراعة والحرف المدنيـــة . وكانت تلك العمليـــة طويلة ومعقدة وكان من الممكن ملاحظتها بشكل واضح فى أوروبا الغربية ، وفى فرنسا بالذات. ولم يكن الفلاحون الفرنسيون يدفعون اتاوة للسيد من المنتجات الزراعيـــة وحـــدها ، وانما من البضائع الحرفيـــة أيضا ، وبالذات من الكتان والقماش .

وصاحب تقـــدم الزراعة ـ انتشار المحراث الحـــديدى ونظام الزرعتين والثلاث زرعات ، ونمو تجـــارة الحدائق وزراعة العنب واصبحت الأسرة الفلاحيـــة تعطى وقتـــا أكبر للحـــرف ، بينمـــا تخصص عـــدد من أعضائها فى تجـــارة معينـــة .

وظهرت طائفة من الفلاحين تدفع كل أتاوتهـــا على شكل بضائع وعن طريق بيع الفائض من البضاعة للفـــلاحين الآخرين فى نفس الجماعة استطاعوا تجميع بعض النقود . وبذلك لم تعد التجـــارة هى الوسيلة الوحيـــدة لاعالة الفلاح ، رغم انه ظل ينتمى قانونيا لنفس الطبقـــة .

وكانت المرحلة الجـــديدة فى تطور الحـــرف اقـــامة روابط بين الحرفيين والسوق . فعندما كانت الاقطاعية فى مرحلتهـــا الأولى كان السيد يسمح للفلاحين الذين يتاجرون بأن يسوقوا بضائعهم فى الأسواق التى كانت تقـــام فى أيام الأجازات بالقرب من القلاع الكبيرة والكنائس . ولكن تلك العمليـــات التجارية لم يكن لهـــا أهميـــة اجتماعية نظرا لطبيعتهـــا العرضية .

وفى البداية كان الفصل بين الحرف والتجارة محدودا الاقطاعيـــة . ومع تطور التخصص ، أصبح تسويق أكثر حدوثا . وبدأ الحرفى فى انتـــاج جزء من بضائعه من السوق ، وحولهـــا بذلك الى سلع ، وأصبح الحرفى نفســه للســـلع .

وكان طبيعيـــا أن الحرفى ذى الكفـــاءة العالية لن يجد لبضائعه بين الحرفيين ، فضلا عن أن الاستغلال الاقطـــاعى يتحول الى عائق شـــديد لمهنتـــه الرئيسية . هـــذان شجعا الحرفى (الذى كان ملاحا حتى الآن من الناحية القانونية ان يترك سيده الى أماكن يكون فيهـــا آمنا من القهر ، يجد سوقا سلعيا لبضائعه .

وبينما هرب بعض الحرفيين الفلاحين ، عقـــد البعض اتفاقيـــات مع اسيادهم الاقطاعيين . وطالمـــا كان هؤلاء الى المـــال فقـــد وجـــدوا من الأربح لهم ان يفرضوا عليـــه من النقود . وفى البـــداية سمح الأسياد للحرفيين بأن يقاطعتهم لفترة قصيرة ، فى وقت الشتاء الذى لا عمل وفى فترة اقامة الأسواق مثلا ، ثم امتدت بعد ذلك فترة

بالأمن . وغالبـــا ما استقروا الى جانب قـــلاع الملوك والدويلات والأسـاقفة أو قريبا من مراكز الادارة التى استجابت لاحتياجاتهم . وفضل الأقنـــان الهاربون أن يستقروا الى جانب الكنائس الكبيرة والأديرة التى كانت محصنـــة مثل القلاع .

واحيـــانا كان هؤلاء الفلاحين الذين تركوا قراهم يستقرون الى جانب نهـــر أو طريق تجـــارى تقف عنـــده القوافل . فهنـــا كثيرا ما كان المسافرون من أماكن بعيـــدة يبادلون بضائعهم ويشترون بضائع الحرفيين المحليين ، وكان الفـــلاحون يستأجرون للقيـــام بأعمال شاذة مثل حمل البضائع وأعمال النوتية .. الخ .

حـــرر هؤلاء الفلاحون (وكانوا أساسا أقنانا) انفســهم تدريجيا من القهر الاقطاعى ، لانه فى تلك الحـــالة كان كل من الملك والسيد له مصلحة فى اجتـــذاب العمل .

وعنـــدما نجح الفـــلاحون فى ادخار مبلغ ضرورى من النقـــود اشتروا حريتهم . وفى بعض الحـــالات توقفوا ببساطة عن دفع الاتاوة المـــاليـــة ، ولم يعودوا الى قراهم ، ولم يكن فى ســـلطة السيد الاقطـــاعى أن يعيدهم . وبهـــذه الطريقـــة اصبح بعض الأقنان احـــرارا .

واتحد جميع الحرفيين فى العصور الوسطى فى نقابات للحرفيين تبعـــا للصنعة التى يمارسونها وكانت هـــذه النقـــابات تقوم على أساس قواعد صارمة تتعلق بحجم الجزء المنتج ونوع المواد الخـــام المستعملة الخ . ووضعوا قواعد أيضـا لدرجة الانتـــاج وكان كل حـــرفى يقتصر ـــ كقاعدة ـــ على اثنين من الصنـــاع واثنين من الصبيـــان .

وحـــددت قواعد نقابة الحرفيين ايضا الاجور التي تدفع للصناع واسعار البضائع المنتجة وكانت هنـــاك ايضا قوانين صارمة بشأن تسويق البضائع .

وادت العلاقات التجارية بين ايطاليـــا وجنوب فرنسا من ناحية وبين البيزنطيين وبلاد المشرق (البـــلدان الواقعـــة على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط) من ناحية اخـــرى ، ادت الى تطور بعض المراكز المدنيـــة مثل البندقيـــة وجنوا وبيزا ونابلى فى ايطاليـــا ومارسيليا واورليـــه وباريون ومونت بيلييـــه فى فرنسا وعـــدد من المدن الأخرى . وقـــد ظهرت المدن فى فرنسا وايطاليا كمراكز للتجارة والحرف فى أوائل القرن الثـــامن وحـــدثت هـــذه العمليـــة فى المـــانيا وانجلترا فى القرنين العاشر والحادى عشر .

وقـــد سبق أن ذكرنا أن مدينـــة كييف فى القرنين العـــاشر والحادى عشر كانت من اكبر المدن الروسية . واشتهرت ايضـــا نوفوجورد وهى مركز آخر ازدهرت فيـــه الحرف والتجارة وكانت تشير نجوف وسمولنسك وبولتسك مراكز اقتصادية هامة اخرى فى روس القديمة .

وفى القرن الثـــانى عشر ظهرت موسكو كمدينـــة ومن منتصف القرن الثـــانى عشر نمت موسكو بسرعة وفى القرن الثالث عشر اصبحت عاصمة لمقاطعة موسكو .

وقـــد ادى المزيد من تقسيم العمل الى خلق طبقـــة اجتماعية لم تكن تساهم فى عمليـــة الانتـــاج ولكن عملهـــا كان قاصرا على تبـــادل المنتجات ــ طبقـــة التجار . فكانوا يشترون البضائع من المنتجين ويبيعونهـــا فى السوق .

وظهرت بالتدريج طبقة اجتماعيـــة أخرى ــ فقراء الريف وهى تضم الصبيـــان والحرفيين المعسرين والصعاليك الخ . وعارضت

الطبقات العليا فى المدينة والتى تضم التجار والمرابين والحرفيين الأثرياء وارستقراطية الاقطاع فى المدن .

اشكال جديدة للدولة ، ظهور الملكية الاقطاعية :

ان الظروف الاجتماعية المتغيرة التى نجمت عن تطور العلاقات السلعية والمالية اجبرت الطبقة الاقطاعية الحاكمة على تغيير اشكال السلطة السياسية .

وقد اتخذت الدولة الاقطاعية مظهرا جديدا باتجاهها نحو المركزية التى تقوم على اساس التوحيد الاقتصادى للأقاليم الواسعة . وكان التوحيد السياسى وتكوين دول مركزية ، ظاهرة تاريخية هامة كامنة فى عصر الاقطاعية المتطورة .

هذه العملية تبعها تغير فى البناء السياسى للدولة واتضحت بشكل كامل فى انجلترا وفرنسا . ففى القرن العشرين انتى الصراع الطبقى فى فرنسا بنتائج اكثر فعالية عن اى بلد آخر بينما كانت الأشكال السياسية اكثر وضوحا عن اى مكان آخر .

وكانت المركزية فى فرنسا منذ القرن الثانى عشر حتى القرن الخامس عشر مصحوبة بتدعيم تدريجى للسلطة الملكية . وامتدت سلطة الملوك الفرنسيين على جميع امراء الاقطاع الأغنياء فى البلاد واخذوا يتمتعون بتأييد واسع من أتباع الآخرين الذين عانوا طويلا من السادة الاقطاعيين .

وقد لعبت المدينة وسكانها دورا بالغ الأهمية فى عملية توحيد فرنسا سياسيا وفى تدعيم سلطة الملك . وكان تأمين الطرق التجارية وانشاء علاقات ثابتة للسوق فى داخل البلاد موضع اهتمام

الحرفيين والتجار وكانوا على استعداد لتأييد سلطة الملك الثالثة ضد أولئك الأمراء الذين انتهكوا النظام القائم بما يثيرونه من المنازعات والحروب واهمال السلب .

وفى سبيل تمثيل مصالح الطبقة الاقطاعية الحاكمة وجد الملك أنه [illegible] تأييد تنمية التجارة والصناعات الحرفية [illegible] وقد لعب بهذه الطريقة دورا تقدميا فى تاريخ هذه الفترة .

ومع أن السلطة المركزية ازدادت قوة فقد استمر الملوك الفرنسيون فى دعوة المجلس الاقطاعى فى كل مرة يتطلب تسوية مسألة هامة أخذ موافقة أمراء الاقطاع الأغنياء وأمراء الكنيسة .

ومن القرن الثانى عشر فصاعدا ، كان ممثلو الطبقات الموسرة فى المدن الكبرى يدعون للمجلس . ومنذ أوائل القرن الرابع عشر (حكم فيليب الرابع) أصبحت جلسات هذا المجلس منتظمة وعرف باسم « الجمعية العمومية » لتمييز هذه الهيئة عن مجالس الأقاليم التى كانت تعقد بشكل منفرد بالنسبة للأقاليم الشمالية من البلاد .

وظهر تمثيل القطاعات الاجتماعية فى بلدان أوروبية أخرى فى انجلترا مثلا ، حيث دخل البرلمان مرحلة جديدة فى تطور الدولة الاقطاعية . وكانت الملكية الجديدة هى الشكل السياسى للسيطرة الاقطاعية وكانت تتفق مع المرحلة الجديدة من مراحل تطور القوى الانتاجية وعلاقات الانتاج القائمة فى المجتمع الاقطاعى الذى نشأ عن نمو المدن وتطور الحرف والتجارة ، هذا الشكل الجديد للدولة الاقطاعية عكس تكالب الطبقة الحاكمة على أن تزيد من استغلال الجماهير .

الدولة الروسية المركزية :

تكونت الدولة الروسية المركزية حوالى نهاية القرن الثالث عشر ورافق توحيد الدولة الروسية الاطاحة بحكم المغول والتتار الذى عرقل تطور القوى الانتاجية فى روسيا منذ القرن الثالث عشر وأصبحت موسكو عاصمة الدولة الروسية ، وأدى القضاء على التفكك الاقطاعى الى المزيد من تطور البلاد اقتصاديا وثقافيا . .

وظلت الدولة الروسية بعد توحيدها ملكية اقطاعية على راسها الدوق العظيم وتدريجيا اصبح مجلس البويار لأمراء الأرض الأغنياء (مستشارى الدوق) مؤسسة دائمة وتكونت الهيئات الادارية التى اكتسبت فى القرن السادس عشر طابع الوزارات الدائمة وتقلصت امتيازات أمراء الأرض الاقطاعيين ولم يعد يسمح لهم بالاشتراك فى مناقشة وحل مشاكل الدولة التى كانت قد أصبحت من اختصاص نواب الدوق .

وفى منتصف القرن السادس عشر بدأت تتطور فى روسيا ملكية تمثل الفئة العليا للمجتمع ، وفى عام ١٥٣٩ تاسست جمعية وطنية عرفت باسم زامسكى سوبر . وفى البداية جاء اعضاؤها من البويار ونبلاء موسكو ، وعندما دعيت للانعقاد فى ١٥٦٦ كانت تضم أيضا ممثلين عن التجار والحرفيين .

وقد أصبحت الدولة الروسية قوية بشكل خاص فى النصف الثانى من القرن السادس عشر اثناء حكم ايفان الرابع الملقب بالرهيب (١٥٣٠ ـ ١٥٨٤) وسرعان بعد توليه العرش ما اتخذ ايفان الرابع لنفسه لقب « قيصر جميع روسيا » ؛ وفى نهاية حكمه امتدت الدولة الروسية من بحر البلطيق فى الغرب الى نهر نيس فى سيبريا ومن المحيط القطبى الشمالى حتى تلال القوقاز وبحر قزوين .

تطور النظـــام الاقطاعى فى آســـيا :

يرجع تاريخ عصر الاقطاع المتطور فى الصين الى القرن الثـــامن عصر امبراطورية تانج . وتميزت هـــذه الفترة بتغير من شـــكل اقطاعى فى ملكيـــة الأرض الى شكل آخر . واستبدل نظام تقسيم الدولة للأرض بنظـــام الولايات الاقطاعيـــة الكبيرة . فتملك اولا ملاك الأرض الأغنيـــاء ثم الارستقراطية الاقطاعيـــة المتوســـطة والصغيرة على مســـاحات من الأرض اكبر واكبر وبذلك حرمت الفلاحين من قطع أرضهم وتقوض الاقتصاد الطبيعى السائد والذى كان يتميز بنظـــام التقسيم وارتبـــاط الزراعة والحـــرف وتطور الانتـــاج السلعى واصبحت المدن القديمة مراكز للحرف والتجارة . وكان المجتمع الريفى خاضعا لتقسيمات طبقيـــة حادة من الملكيـــة بين الفلاحين . وحوالى نهـــاية القرن الثامن اعترف رسميا بالأرض التى كانت فى حوزة الأمراء الاقطاعيين كملكيـــة لهم .

وكانت الكنيســـة البوذية اغنى من يمتلك ارضا فى الصين وفى منتصف القرن التاسع امتلكت المعـــابد البوذية ٦٠ مليون هكتـــار من الأرض .

وادى الانتقـــال الى اشكال جـــديدة من الملكيـــة الاقطاعيـــة الى التفكك السياسى فى البلاد الأمر الذى ازداد بشكل كبير بعـــد سقوط امبراطورية تانج فى اوائل القرن العـــاشر . ولكن نظـــام الدولة الصينيـــة أبقى على عنـــاصر المركزية التى ســـاعدته على الاحتفاظ بوحدة سياسية اقوى من تلك التى وجدت فى نفس الوقت فى اوروبا ، وكان هـــذا يرجع الى حـــد كبير الى تلك العـــوامل الهـــامة فى تلك الفترة كما كانت فى العصر العبودى ـ الحـــاجة الى مشروعات عامة تتعلق باصلاح وتحسين السدود والجســـور وانظمة الرى ككل ومثل هـــذه المشروعات لا يمكن تحقيقهـــا على مســـتوى محلى .

والهنـــد مثل الصين قـــد طورت الاقطاع فى فترة مبكرة نســـبيا (فى القرن السابع) وكانت الأراضى الاقطاعية مقسمة الى قسمين : قسم فى حوزة الأمراء الاقطاعيين تسلموه نظير الخدمة العســـكرية التى يؤدونهـــا للأمراء (المهراجات) واصبحت هـــذه الأراضى ـــ كقـــاعدة ـــ وراثيـــة ، والقسم الآخر ملك لأمراء الاقطاع دون اى شرط أو حـــدود وكان المهراجات انفســـهم يمتلكون مساحات واســـعة من الأرض .

والأرض التى منحت بواســـطة المهرجانات كانت تنزع ملكيتهـــا فى الغـــالب من كوميونات القرية والكوميونات نفسها غالبا ما كانت ملكيـــة خاصـــة .

ان ركود كوميون القرية الهنـــدية كان أيضا عاملا هاما فى زيادة حـــدة الاستغلال الاقطـــاعى .

ويتميز المجتمع الهندى بشكل خاص بالجماعات والسلالات التى تكونت فى العصر العبـــودى وبقيت حتى هـــذا اليوم ـــ وكانت السلالات توجد الجماعات المختلفـــة تبعـــا لأصلها أو تجارتهـــا مما جعل نظام السلالات شـــكلا من أشكال التقسيم الاجتمـــاعى للعمل . هـــذا النظـــام قـــد خدم دائما ولا يزال يخـــدم مصالح الطبقـــات المستغلة .

والدولة الاقطاعية التى ظهرت فى الجزيرة العربيـــة كانت تمتاز بأن المجتمع الدينى كان نواة التوحيد السياسى . ودخل الاســـلام الى الجزيرة العربيـــة على يـــد محمد ـــ احـــد أعضـــاء الأسرة الهاشمية من قبيلة قريش (٥٧٠ ـــ ٦٣٢) تقريبـــا .

دول القـــارة الافريقيـــة :

شاهدت هـــذه الفترة تطور الدولة الاقطاعية فى القارة الأفريقية جنوب الصحـــراء الكبرى .

الذى احتلتـــه يوما نتيجـــة لغـــارات قبـــائل سوسو ، مكانها تدريجيا مالى التى كان يقطنهـــا شعوب المـــاليانكه . القـــرن الحـــادى عشر كانت امارة مالى الصغيرة تقع بين بيلكو وقـــد ساهمت الزراعة وبالذات زراعة القطن وأيضا الذهب والحرف والتجـــارة فى خلق القوة الناهضة لدولة وفى ١٢٤٠ هزم ساندياتا (ماري جاتا) احـــد حكام مالى ، الغـــانى ودمر عاصمة غانا .

اواخ[redacted] اصبحت عاصمة دولة مالى ، وهى [redacted] تجاريا هاما ، وتلتقات روابط تجـــارية مع بلدان جنوب البحر الأبيض المتوسط .

النصف الأول من القرن السابع عشر أدى النشاط العدائى سونجهاى وفيولب وبامبارا الى تقويض دولة مالى ، ثم سقوطها وظهرت دولة اقطاعيـــة اخرى ، فى ذلك الوقت ، الجزء الشرقى من السودان الغربى أسستها قبائل سونجهاى .

تاريخ تأسيس أول دولة لقبائل سونجهاى الى القرنين عشر والخامس عشر . وفى القـــرن السادس عشر امتدت قبائل سونجهاى من النيجر الأعلى حتى شلالات بوســـا منطقـــة الصحـــراء فى الشـــمال حتى أراضى بوبو وموسى جنوب . وفى سونجهاى ، كمـــا فى دول سودانيـــة اخرى ، عمل الرق دورا هاما فى الانتـــاج الاجتماعى . وكان العبيـــد ارضـــا فى الغـــالب وكأقنـــان الأرض كانوا يجبرون على الايجـــار نوعا . وقـــد حصل أسلافهم الذين اطلق عليهـــم ورانى على حقوق معينـــة فى الجيلين الثانى والثالث فلم يعد رغم انه كان ينظـــر اليهم كعبيـــد . وكثيرا ما هب رقيق والديلجورانى والعبيـــد معـــا ضد الذين يقهرونهم .

وشاهد مطلع القرن السادس عشر أول صدام بين الحكام من قبائل سونجهاى والسلاطنة المراكشيين استمرت طوال القرن . ومع ان حكام سونجهاى كسبوا الجولة الأخيرة فان الضعف كان قد انتاب الدولة الى درجة ادت لانهيارها فى حوالى نهاية القرن السابع عشر.

وكان القرن السابع عشر عصر ازدهار بالنسبة لدولة « بنين » وهى جزء من جنوب نيجيريا الحالية ، وقد تطورت هناك على مدى قرون ثقافة غنية خلقها شعوب يوربا وايدو .

وكانت الكونغو هى الأخرى احدى الدول الاقطاعية الكبرى وحين كانت دولة الكونغو فى ذروتها ، من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر ، امتدت اراضيها حتى نهر كوانجو فى الشرق ونهر كوانزا فى الجنوب والمحيط الأطلنطى فى الغرب وحوالى ٥٠٠ ـ ٦٠٠ كيلو مترا شمال نهر الكونغو . وجميع هذه المناطق كان يسكنها الباكونجوم والباسندى والمايوب .. الخ . وكانت لغة الكيشيكونجو هى اللغة الرسمية لتلك البلاد .

وقد اعتمد الانتاج الاجتماعى الى حد كبير على عمل العبيد فكان العبيد يقومون بأشق الأعمال وتطورت الحرف المختلفة واتسعت التجارة وقامت علاقات اجتماعية من نوع مماثل فى الدول المجاورة : انجولا ومونوموتابا (الى الجنوب والجنوب الشرقى من الكونغو) .

ايدلوجية وثقافة المجتمع الاقطاعى ، الدين والكنيسة :

لم يكن الاستغلال الاقتصادى والقهر السياسى هما الوسيلتان الوحيدتان لتدعيم سلطة الطبقة الاقطاعية على الشعب العامل . واستخدمت الأيدولوجية الى حد كبير ولعبت الكنيسة دورا متميزا

فى الايدولوجيـة الاقطاعية . وقـد اثر النفوذ القوى للكنيسـة تاثيرا خطيرا على كافة مناحى مجالات الثقـافة الروحيـة لمجتمع العصور الوسـطى .

وتعتبر الكاثوليكيـة الرومانية مثلا كلاسيكيا للدور الذى لعبته الكنيسة فى المجتمع الاقطاعى . وقـد صارت المسيحية هى الدين الرسمى لملاك العبيـد فى عصر اباطرة الرومان وجعلت الطبقـة الحاكمة من أمراء الاقطاع فى العصور الوسطى من المسيحية حجر الزاوية فى ايدلوجيتهم . وفى القرن الحادى عشر بعـد أن انشقت الكنيسة المسيحية نهائيا الى شرقيـة وغربيـة واصبحت الكنيسة الكاثوليكية الرومانيـة او الغربيـة السند الأيديولوجى للنظـام الاقطاعى فى أوروبا الغربيـة .

وحتى تركيب الكنيسة الكاثوليكيـة اقتفى اثر النظام الاقطاعى الرسمى للتبعيـة الصارمة وعلى راسها البـابا واساطين روما ومن بعدهم الكرادلة والمطـارنة والأساقفة .. الخ . حتى رعاة الكنيسة والقساوسة الذين حافظوا على اتصالهم المباشر بالشعب .

وكانت الكنيسة الكاثوليكيـة نفسها من ملاك الأرض الاقطاعيين الأقوياء . وفى أوروبا كانت أكبر الأملاك فى حوزة دير القـديس نروند فى جنوب الأراضى الواطئـة ، وكانت كاتدرائيـة نوتردام فى باريس تملك اراض زراعيـة ومزارع كروم وغـابات ومراعى تربى عليهـا قطعان لا حصر لهـا من الخيول والمـاشية والمعيز والأغنـام والخنازير . وكانت العشور — عشر ما ينتجه الفلاح — تدفع بانتظـام للكنيسـة .

فالاستغلال الوحشى للفـلاحين والحرفيين كان مصـدر ثروة الكنيسـة .

وتحمل الثقافة الأوروبيـــة الغربيـــة فى أوائل العصور الوسطى وفى فترة الاقطاعية المتطورة ، آثارا واضحة للنفوذ الكهنوتى .

وحل علم اللاهوت الكاثوليكى محل الفلسفة القديمة والعلوم الرياضة والطبيعية التى كانت ترتبط به ارتباطا وثيقـــا . واقتصر الأدب على الكتـــابة المقدسة والتاريخ على كتابة التقاويم الخاصة بالأديرة ووضع الشعر والموسيقى والفن فى خدمة الكنيســـة التى احتكرت أيضا نظام التعليم بأكمله .

ومهمـــا يكن فانه من الخطـــأ ان يعتقـــد أن الاحتكار الروحى للكنيسة قـــد نشأ بطريقة سلمية ـــ فالكنيسة دخلت الحياة الروحية للمجتمع نتيجة للصراع الوحشى ضـــد جميع المفكرين الأحـــرار فى ذلك الوقت ، ضـــد الجماهير . واضطهدت الكنيسة الكاثوليكية (شأن اى كنيسة أخرى) جميع أنصار المعتقـــدات والأســـاطير الشـــعبية المعـــادية للكهنوت .

وفى تاريخ عصر الاقطاع كان الاسلام دينـــا آخر واسع الانتشار فقـــد وضع مجتمع الدين الاسلامى اساسا لتطور الدولة الاقطاعية فى الجزيرة العربيـــة وبـــدأ الاسلام يحكم الحياة الروحية للمجتمع الاقطاعى فى الأقاليم التى فتحها العرب . وبعد ذلك تغلغل فى كثير من البلدان الآسيوية والأفريقيـــة الأخرى وفى أوروبا بدرجة اقل .

ويمكن وضع البوذية بسبب تأثيرها الضخـــم ، بين الديـــانات العالميـــة البارزة ، وقـــد ظهرت هـــذه التعاليم التى تحمل اسم مؤسسها الأسطورى ، أول ما ظهرت فى الهنـــد القديمة حيث قامت على أساس المعتقـــدات الأساسية لمذهب البراهمة واصبحت الدين الرسمى لطبقة ملاك العبيـــد .

وعندما ظهر النظام الاقطاعى انسحبت البوذية الطريق تدريجيا للهندوسية ولكنها فى نفس الوقت أحرزت تقوما فى البلدان المجاورة على الصين مارس الناس البوذية لأول مرة فى القرن الاول الميلادى وازدادت قوة بشكل خاص فيما بين القرنين الرابع والسابع ، وفى النهاية انسحبت الطريق للكونفوشية ولكنها الى حد معين كانت [redacted] الميلاد ، ثم واصلت زحفها الى كوريا واليابان [redacted] وكمبوديا القديمة وبلدان أخرى من الهند الصينية ثم توغلت فى سيلان ونيبال .

وطبقا للتعاليم البوذية فان كل الواقع المرئى ليس الا مظهرا وهميا لجوهر روحى مبهم يوجد فى حالة من الهدوء التام — نرفانا . هذا الجوهر يتفق مع الفكرة المتمثلة للآلهة فى الديانات الأخرى . فالحياة هى مظهر للشر والعذاب ويمكن ادراك الخلاص بالوصول تدريجيا الى حالة النرفانا التى تسمح بنسيان الواقع الخارجى . وأخيرا فالتعاليم البوذية كانت تكملة للمفاهيم عن الفردوس والعالم السفلى الذى جعل هذه الديانة اكثر منها لدى الجماهير وبذلك دعمت دورها كدين رسمى للطبقة الاقطاعية يدعو الى تبرير عدم المساواة الاجتماعية .

تطور الأيديولوجية المعادية للاقطاع والهرطقة الدينية :

ان سيطرة الأفكار المثالية والدينية (المسحية فى اوروبا والاسلام والبوذية فى آسيا وافريقيا) لم يمنع وجود تيارات ايديولوجية متناقضة وعدائية .

ولقد بذلت العناصر التقدمية فى المجتمع الاقطاعى جهدها رغم الاضطهاد العنيف لتدخل المفاهيم والأفكار المادية ومن ثم تميز

العصر الاقطاعى ، مثل العصور التاريخية السالفة ، بصراع ايديولوجى عنيف .

وقد استعار ايديولوجيو الكاثوليك فى اوروبا الغربية امثال توما الاكوينى وغيره تعاليم بعض فلاسفة العالم القديم المثاليين وبتزييف نظريات ارسطو ، ابتدعوا مفاهيم مثالية دينية للعصور الوسطى وفى نفس الوقت عمد الفلاسفة العرب الى ابراز الافكار الموروثة عن المادية فى العصر القديم وكان ابن سينا وابن رشد من اعظم الفلاسفة الماديين تقدما فى ذلك العصر وكانت آراء ابن رشد تتفق فى الكثير مع نظريات ديمقريطس . فقد نظر الى المادة كحقيقة موضوعية واعتبر الذرات جزيئات مادية . واعترف بوجود حكمة شاملة موازية (للروح الفائية) للفرد والتى يتم وحدتهما فى لحظة المعرفة . وان رايه الديمقراطى فى المساواة الذهنية بين الناس بغض النظر عن وضعهم الاجتماعى ، لهو مظهر هام من تعاليمه .

وقد نقل مفكرو اوروبا الغربية التقدميون آراء ابن رشد ولاءموها مع الظروف الاجتماعية الاقتصادية والتقاليد المادية الجارية فى اوروبا فى ذلك العصر واصبحت الأفكار المادية سلاحا خطيرا فى الصراع الطبقى الايديولوجى المعادى للاقطاعية فى يد جميع العناصر التقدمية فى المجتمع .

وكان مذهب الاسمية اول اتجاه مادى فى فلسفة العصور الوسطى فى القرن الثالث عشر واعترف دنس سكوتس وأوكام من اتباعها من الفلاسفة الانجليز بالطبيعة المادية للعالم واعتبروا الطبيعة هى الأصل كما عارضا المفهوم المثالى الذى يؤكد اسبقية العقل كما اعترفا ايضا بامكانية اكتشاف العالم . ومهما يكن فقد كانت هذه مادية ميكانيكية غير جدلية . ومن نهاية القرن الثالث

عشر وحتى القرن الخامس عشر زادت العناصر التي تخضع للآراء المثالية في مذهب الاسمية .

وظهرت المعارضة المعادية للاقطاع ليس فقط بين سكان المدن الموسرين ولكن ايضا بين الفلاحين والعامة من سكان المدن وكانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالصراع ضد سيطرة الكنيسة .

[redacted] الصراع هو صراع طبقي ايديولوجي فقد صاحب الهرطقة في الغالب هبات مسلحة معادية للاقطاع وكانت المعارضة الريفية تتضح بعض الأحيان في تعاليم غامضة موجهة ضد سيطرة الكنيسة .

هذا الصراع الذي حدث في العصور الوسطى ضد المثالية والدين وضع الأساس لظهور المادية والالحادية في العصر الحديث .

صراع الجماهير المعادي للاقطاع :

اثار الاستغلال الاقطاعي مقاومة عنيفة من جانب الفلاحين والحرفيين وهيأ التناقض بين الطابع المستقل لاقتصاد المنتج الصغير وتبعيته غير الاقتصادية للارستقراطية الاقطاعية اساسا للصراع الطبقي العنيف المعادي للاقطاع من جانب الطبقات المقهورة .

وتوقف شكل الصراع الطبقي على عدد من العوامل التاريخية المحددة ـ مستوى تطور القوى الانتاجية ونوع علاقات الانتاج والمؤسسات الادارية والسياسية .

وتميزت كل فترة من هذه الفترات الثلاث في تطور المجتمع الاقطاعي بسماتها الخاصة بها والمتعلقة باسباب واهدافه واشكال الصراع الطبقي الذي شنته الجماهير واساسا الفلاحون

ضد المستغلين . فالرغبة فى التحرر من العبودية واشكال التبعية الاقطاعية الأخرى كانت أمرا مألوفا فى الصراع الطبقى اثناء العصور الوسطى ولكن تحت ظروف معينة فقط اثناء تفسخ النظام الاقطاعى،

يمكن للصراع الطبقى ان يؤدى الى انهيار النظام الاقطاعى ، ولا زالت العلاقات الاقطاعية ، فى مرحلة مبكرة من تطورها ، تعمل على تشجيع تطور القوى الانتاجية .

وكما ذكرنا من قبل فان العصور الوسطى الأولى كانت تتميز بصراع الفلاحين ضد العبودية وتميزت الفترة الثانية من تطور الاقطاع ، والتى ترتبط بظهور المدن وتطور العلاقات السلعية والنقدية ، بظهور احداث عاصفة . ففى أوروبا شنت المدن صراعا وحشيا ضد الحكام مطالبة بحقها فى الحكم الذاتى وتخفيف وتنظيم الالتزامات الاقطاعية والضرائب ، ثم اعقب ذلك صراع بين « أمهات المدن » ونقابات الحرفيين التى كانت تناضل من أجل المشاركة فى ادارة المدن . وأخيرا كان هناك الصراع بين ارستقراطية المدينة وزعماء نقابات الحرفيين من ناحية والصناع ومؤيدهم فقراء سكان المدينة (العامة) من ناحية اخرى .

وغالبا ما كسب الصراع الطبقى فى القرى تأييد فقراء سكان المدن وزاد هذا من حدة التناقضات الاجتماعية ونجم عنه موجة من الهبات الفلاحية الخطيرة ساندها فقراء سكان المدن . وشاعت فى أرجاء أوروبا فى القرن الثالث عشر والرابع عشر : « ثورة الرعاة » فى ١٢٥١ والحركة الشعبية ١٣٢٠ فى جنوب الأراضى الواطئة وفرنسا وحركة دلكينو فى ايطاليا (١٣٠٥ — ١٣٠٧) وهبة أيتين مارسيل واليماقبة فى فرنسا (١٣٥٧ — ١٣٥٨) ، وثورة وات تايلر فى انجلترا (١٣٨١) والحركة الثورية التى قام بها الهوسيت فى بوهيميا (فى بداية القرن الخامس عشر) .

واثناء العصر الاقطاعى كانت هناك شعبية خطيرة فى كثير من البلدان الآسيوية : الحركة الشعبية فى بغداد مقر الخلافة الاسلامية (القرنين الثامن والتاسع) وثورة حاجى مول التى قام بهـا فقراء دلهى (فى بداية القرن الرابع عشر) ، والحرب الفلاحية (القرن التاسع) وحركة المنديل الأحمر (القرن الرابع عشر) فى الصين والثورات التى حـدثت فى كوريا (فى ١٢٣٣ وفى اواخـر القرن الخامس عشر) وسلسلة الهبات التى وقعت فى اليابان (القرنين الخامس عشر والسادس عشر) والحروب الفلاحية التى قادها بلوتونكوف (فى بداية القرن السابع عشر) ورازين (الربع الثالث من القرن السابع عشر) فى روسيا .. الخ .

وكان لكل حركة من هـذه الحركات سماتها المميزة الخاصة .

وقد ساعدت الهبات الفلاحية التى كانت تهدف الى التخطيط من قسوة حياة الجماهير العـاملة على تطور القوى الانتاجيـة الاقطاعية ، ومن ثم فالدور الذى لعبته كان دورا تقدميا وثوريا . ونادرا ما كان الفلاحون يطالبون بغير الحرية الشخصية وحقهم فى امتلاك الأرض التى يزرعونها . وفى عدد من الهبات لم يجرؤ الفـلاحون على المطالبـة بالغـاء جميع الالتزامات الاقطاعيـة والايجارات بل قصروا مطالبهم على التقليل من بعض واجباتهم . ولقـد اخطأوا فى تصورهم ان مطالبهم المحدودة قد تلقى قبولا من الطبقـة الحاكمة .

ان قصور التنظيم وتفكك الثوار ـ نتيجة للطابع المميز لعمل الفلاحين وكذلك النقص فى وجود القـادة ذوى التجربة ـ ادى بشكل لا يتغير الى فشل الحركات التى قام بهـا الفلاحون .

٣ ــ مرحلة تفكك الاقطاع (نشأة الرأسمالية)

احتفظت السمات المميزة لأسلوب الانتاج الاقطاعى بأهميتها فى المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل تطور الاقطاع ، ولكنها تأثرت كثيرا بظهور الرأسمالية . وترجع بداية هذه المرحلة التاريخية الى القرن السادس عشر ولو أنه يمكن تبين جذور الانتاج الرأسمالى فى بعض المدن الايطالية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

تغيرات اقتصادية ــ متطلبات ظهور رأس المال وتراكمه الأولى :

لقد تطورت القوى الانتاجية فى المرحلة الثالثة للعصور الوسطى الى المدى الذى بدأت تظهر فيه العلاقات الرأسمالية فى أعماق تركيب الاقتصاد الاقطاعى . وظهرت طبقة جديدة من المستغلين ــ البرجوازية التى تملك وسائل وأدوات الانتاج وطبقة جديدة من المستغلين ــ العمال الاجراء أو البروليتاريا التى اضطرت حين حرمت من هذه الوسائل ، لأن تبيع قوة عملها للرأسماليين ، واجبر الرأسمالى العامل الأجير على ان يؤدى عملا اكبر مما يحتاجه لكى يعول نفسه ويعول اسرته . وكان العمل الفائض الذى يحققه يذهب ليخلق فائض القيمة التى يستحوذ عليها الرأسمالى ، وهذا الاستحواذ على فائض القيمة هو شكل مميز للاستغلال الرأسمالى وهو القانون الأساسى لأسلوب الانتاج الرأسمالى .

ان تطور القوى الانتاجية كان المتطلب الأساسى لتكوين الرأسمالية داخل النظام الاقطاعى .

حين اخترعت أفران الصهر فى القرن الخامس عشر استخدمت

طارة تدار بقوة المـــاء لتقوم بعملية النفخ ميكانيكيا . وحتى اختراع افران الصهر كان المنفاخ اليدوى فقط قادرا على تحويل المعدن الى حالة لدنة . وقد مكن الاختراع من تحويل المعدن الى حالة السيولة الأمر الذى أصبح معه ممكنا تشكيل ادوات مختلفة من الحديد . وبدأ انتاج الصلب وأعقبه ادخال آلات الخراطة والثقب والطحن نتيجة لتحسين الأدوات .

وفى مجال انتاج الأقمشة انسحبت الأنوال الراسمالية البدائية الطريق لنوع من الأنوال الأفقية . وقد اخترعت ساعة الجيب التى تدور على أســـاس الحـــركة الميكانيكية للزنبرك فى القرن الخامس عشر وحلت محل الساعات البدائية التى عرفت منذ القرن الثانى عشر .

وبانتاج القطع المعدنية تمكن الانسان من بناء سفن شراعيـــة حديثة قادرة على ان تقوم برحلات طويلة وحمل حمولات ثقيلة . وادخل تعديل على البوصلة . واخترعت آلة الطباعة .

وادى تحســـين الأدوات الزراعية الى تسهيل عمـــل القوى الانتاجية فى الزراعة ولكن بخطى ابطـــأ من الصناعة . واتسعت المساحات التى تزرع بالحبوب وزاد الانتاج الزراعى وأجرى تحسين فى تفليح الأرض . وجنبا الى جنب مع انتشار نظام الدورة الثلاثية ادخل نظام الدورة المتعددة واعادة زراعة الأراضى البور .

ومع نمو المدن ازداد الطلب على المواد الغذائية وادى التقدم الصناعى الى زيادة الطلب على الصوف والجلود والكتان والقنب الهندى والمنتجات الزراعية الأخرى .

وفى المرحلة النهائية من العصور الوسطى تمت خطوات جبارة

نحو تربية الماشية وزراعة البساتين وزراعة الحدائق والكروم وانتاج النبيذ بشكل خاص .

وبدأت تتخصص مناطق ومقاطعات معينة فى انتاج محاصيل خاصة . وظهرت الزراعة التجارية فى المناطق المناسبة . فمثلا تخصصت الأراضى الواطئة فى تربية الماشية وتصدير منتجات الألبان واهتمت مناطق معينة فى أسبانيا بتربية اغنام المارينو وتصدير الصوف الخ .

وأدى نمو الزراعة والصناعات المختلفة الى التفرقة بشكل كبير بين الصناعة والزراعة ، والى ظهور مجالات جديدة من الانتاج الصناعى . وكان التقسيم الاجتماعى للعمل لا يزال يجرى مجراه مما أدى الى نمو العلاقات التجارية والمالية وتطور التجارة . واذا كان السوق فى الفترة السابقة قاصرا على المساحات الفردية فانه قد تطور الآن على المستوى القومى .

ونجم عن تطور التجارة فى ظل هذه الظروف الجديدة اضعاف الانتاج الصغير وساعد على ظهور عناصر معينة للعلاقات الرأسمالية .

وأدى المستوى المرتفع نسبيا للانتاج السلعى الى تراكم مبالغ طائلة من المال فى أيدى الأفراد — التجار والمرابين الخ .. وكان هذا شرطا تاريخيا هاما لنشأة رأس المال . ووجدت أيضا جماهير من الناس الأحرار الذين طردوا من الأرض وحرموا من وسائل الانتاج وبالتالى من وسائل المعيشة بواسطة المستغلين الاقطاعيين والبرجوازية الناشئة . تلك كانت هى المتطلبات لما سماه ماركس التراكم البدائى لرأس المال — ويمكن أن

لاحظ المظهر التاريخى لهـذه العملية على نحو افضل فى القرن السادس عشر والسابع عشر فى انجلترا حيث تطورت الراسمالية فى وقت مبكر عن اى بلد آخر .

ورغم ان انجلترا فى القرن السـادس عشر لم تكن سوى بلد صغير يبلغ عدد سكانها من ثلاثة ملايين الى ثلاثة ملايين ونصف ، فان دفعة اقتصادية قوية بدات بها قدر لها بعد ثلاثة قرون ان تجعل من انجلترا واحدة من اقوى الدول الصناعية . وهكذا حدد القرن السادس عشر بداية التطور الصـناعى الراسمالى والزراعى فى انجلترا .

وكان الشكل التعاونى البسيط هو المرحلة الأولى من مراحـل الانتاج الراسمالى فى الصناعة ، وفى الظاهر كان اشبه بورشة صناع كبيرة ولكن العمال كانوا عمالا احرار لم يعودوا يشتغلون لانفسهم ولكن من اجل احد الراسماليين صاحب دكان او تاجر جملة او مرابى او احد الصناع الاثرياء الذى يقوم بصناعة احدى المنتجات المحـددة .

ولم يكن هنـاك تقسيم للعمل . ولكن ادى هـذا التعاون الى اقتصاد محدد فى العمل وانتاجية اكبر بالمقارنة بورشة الصانع وكان صاحب العمل يستحوذ على الزيادة فى ناتج عملهم .

وشاهد القرن السادس عشر تغـيرات بسيطة فى الصناعات الانجليزية ، وبالذات فى انتاج الاقمشة فصناعة الأقمشة التى كانت تاصرة على نقابات الحرفيين فى المدن ، انتشرت الى القرى . وكان الحرفيون فى الريف يعملون فى الزراعة وحرفتى الغزل والنسيج . والدور الرئيسى الذى لعبه المرابون والتجار وصغار اصحاب الاعمال

كان عبارة عن شراء الأدوات التى ينتجها حرفيو القرية مستفيدين من نقص ما لديهم من مواد وبعدهم عن السوق .

وكان الوسيط يحدد أسعار الأدوات بطريقة تعسفية ، فهو يمد الحرفى بالمواد الخام والأدوات بالأجل وفى النهاية أصبح موزعا . والحقيقة أنه أصبح الآن صاحب عمل رأسمالى يقوم بدفع اجور لمن كانوا فيما مضى حرفيون مستقلون وبمقارنة هذا الوضع بالتعاونية الرأسمالية البسيطة فقد كان هذا نموذجا جديدا للمشروع الرأسمالى الذى يقوم على أساس تقسيم العمل اليدوى .. وعرفت هذه المشروعات بالمانيفاكتور وقد اقيمت بواسطة رأس المال التجارى اساسا لأن الحرفيين كانوا يعملون بالمنزل وليس فى ورشة عامة . وفى أنموذج آخر للمانيفاكتور كان رب العمل يشترى بنفسه جميع المعدات ، والمواد الخام اللازمة ، ويبنى ورشة كبيرة حيث يتركز فيها جميع العمال الأحرار وكان ذلك هو المانيفاكتور المتمركز .

والأنموذج الثانى للمانيفاكتور يتيح امكانيات اوسع فى سبيل التطور لعلاقات رأسمالية جديدة .

وكان لجميع هذه التغيرات التى حدثت فى الصناعة اثرا بعيدا على جميع فئات المجتمع الانجليزى .

فقد تطلب ازدياد لانتاج الرأسمالى فى صناعة النسيج مزيدا من الصوف والعمل عما كان يتطلبه الانتاج الحرفى . واصبحت تربية الأغنام تجارة مربحة وتطلب هذا مساحات كبيرة للرعى ، وكان أصحاب الملكيات الصغيرة من الفلاحين لا زالوا يملكون معظم المراعى . وفى القرن السادس عشر بدأ اللوردات الانجليز الذين كانوا يقومون بتربية الأغنام منذ أجيال فى طرد الفلاحين من ارضهم

ويستولون عليها . وحرمت جماهير غفيرة من الفلاحين من أرضها وأصبحت جميع المساحات خالية من السكان . وفى كتابه « ايتوبيا » ميز الكاتب الانجليزى الانسانى توماس مور انجلترا المعاصرة بهذه الكلمات « ان اغنامك .. أتت حتى على الرجال أنفسهم » . وقد اضطر الفلاحون الذين طردوا من أرضهم وحرموا من جميع ملكياتهم ووسائل معيشتهم للبحث عن عمل فى ورشـــة رأسمالية . وقد سهلت الحكومة الاقطاعية هذه العملية بان اصدرت سلسلة من القوانين الصارمة اصطلح على تسميتها بالقوانين الدموية لاضطهاد « الرعاع » .

ان تجريد الفلاحين من أرضهم كوسيلة من وسائل التراكم البدائى لرأس المـــال كان يمارس ايضا فى الأراضى الواطئة وفرنسا .

وكانت ديون الدولة أيضا مصدرا هاما للتراكم البدائى لرأس المـــال . فقد كانت الدولة فى حاجة مستمرة الى المـــال لصـــيانة الجيش والادارة وكانت الضرائب غير كافية لتغطية المصروفات . فالدولة الاقطاعية (فرنسا بالذات) غالبا ما اقترضت المـــال من المرابين والتجار بمعدل فائدة مرتفع .

وكانت نشاطات الدولة الاقطاعية مرتبطة بمصدر آخر من مصادر التراكم البدائى ــ الحمـــاية الجمركية . ففى فرنسا ثم بعد ذلك فى انجلترا والأراضى الواطئة فرضت ضرائب باهظـــة على الأدوات المصنوعة المستوردة وعلى تصدير المواد الخام والمواد الغذائية ومنح التجار واصحاب الأعمال (فى داخل البلاد) اعانات مالية ومكافآت وبعض الامتيازات الأخرى .

الاكتشافات الجغرافية الكبرى وبداية التوسع الاستعمارى :

وبالاضافة الى تجريد الفلاحين من ارضهم قسرا فان مصادر تراكم رأس المال المال قبل مع اكتشاف الأراضى الجديدة التى تحولت الى مستعمرات ونهبت ثرواتها . فتطور العلاقات التجارية والنقدية زاد من التطلع النهم للطبقة الاقطاعية الأوروبية نحو المال .

ودفعت الشهوة نحو الأثرياء بالمغامرين الاقطاعيين الى البلدان الآسيوية البعيدة ورويت القصص عن الثروات الخرافية التى يمكن العثور عليها فى البلاد المجهولة والتى تقع فى مكان ما من نصف الكرة الغربى .

وكان أمراء الاقطاع الاسبانيون والبرتغاليون والتجار هم أول المستعمرين . فقد وصل البرتغاليون فى بحثهم عن الذهب الى شواطىء افريقيا . وبعد أن داروا حول ما يسمى برأس الرجاء الصالح وصلوا فى النهاية الى الهند .

ومنذ نهاية القرن الخامس عشر بدأ البرتغاليون فى عملية نهب الهند وسرقة ما فيها من توابل وذهب وعاج وغيرها من الأشياء الثمينة.

وفى ١٤٩٢ اكتشف كرستوفر كولومبس ، وهو من أهالى جنوا ، وكان يعمل فى خدمة ملك اسبانيا ، امريكا . وقد أعلنت جميع الأراضى التى اكتشفها كولومبس ملكا للتاج الأسبانى . ولكن لم يكن لدى كولومبس اى فكرة بأن الأراضى التى اكتشفها حديثا كانت جزءا من قارة جديدة . وارتاد أمريجو فزبيوزى من فلورنسا المناطق الشمالية لأمريكا الجنوبية ووصفها ، واعلن عن وجود قارة جديدة اطلق عليها فيما بعد اسم امريكا تكريما له .

وفى واوائل القرن السادس عشر اكتشف ماجلان ، وهو نبيل برتغالى كان يعمل فى خدمة التاج الأسبانى ، المعبر الجنوبى الغربى من اوروبا الى الشرق الأقصى ، واكد بذلك الصلة بين المحيط الأطلنطى والمحيط الهادى وكانت رحلته هذه هى أول رحلة حول العالم .

فالاكتشافات الجغرافية الكبرى التى تمت فى القرن السادس عشر أدت الى تغيرات اجتماعية اقتصادية خطيرة فى أوروبا : توسيع السوق العالمية وزيادة كمية البضائع المتداولة والصراع بين البلدان الأوروبية على ثروة القارات الأخرى وبداية الاستغلال الاستعمارى .

وساهم تطور هذه العوامل بشكل كبير فى تحطيم اسلوب الانتاج الاقطاعى . فالثروة التى نهبت من المستعمرات بدأت تتدفق على أوروبا وكان لهذا تأثير مفاجىء على اقتصاد أوروبا الغربية وبالذات اسبانيا والبرتغال حيث حدث ما يسمى « ثورة الأثمان » . فالفضة والذهب التى حصلوا عليها من عمل العبيد فى امريكا كانت أرخص كثيرا من المعادن النفيسة المتداولة فى أوروبا كوسيلة للتبادل . ونجم عن هذا ارتفاع فى سعر جميع المنتجات الأساسية بشكل مستمر وتوجيه ضربة عنيفة أولا الى فقراء الفلاحين الذين لم تكن لهم صلة بالسوق والى الشعب العامل فى المدن .

ودمر الغزاة الأسبانيون حضارة شعوب ازتيك فى المكسيك وانكاس فى بيرو اللتان كانتا على درجة عالية من التطور . وقد ساعدهم تفوقهم العسكرى الى جانب تأييد القساوسة الكاثوليك على غزو معظم امريكا الوسطى والجنوبية . وبعد ذلك اقام المستعمرون نظاما صارما وحشيا للقهر والاستغلال بالاضافة الى نهب المستعمرات .

وفى أعقاب اسبانيا والبرتغال جاءت فرنسا التى اغتصبت عددا من الأقاليم فى امريكا الشمالية والجنوبية .

وقد اسس التجار الهولنديون والانجليز عدة شركات تجارية باسم الهند الشرقية لكى تستغل الشعب الهولندى بشكل اكثر عنفا . وفى القرن السابع عشر حل الاستعماريون الانجليز محل شركائهم الهولنديين فى الهند . ولكن فى اندونيسيا كانت قدم الهولنديين اكثر رسوخا وحموا هذه البلاد من منافسيهم .

وفى البداية مارس الاستعماريون تجارة غير متكافئة ولكن سرعان ما بدأوا يستخدمون الأسلحة النارية بشكل متزايد وتحولت كل من الهند واندونيسيا الى مستعمرتين للراسماليين الأوروبيين .

واصبح اغتصاب ونهب الأراضى الجديدة مصدر الثروة الخيالية للعالم القديم وزاد من سرعة تطور الراسمالية فى اوروبا .

استعمار القارة الافريقية :

يرجع استعمار افريقيا الى القرن الخامس عشر حين نزل البرتغاليون ثم الأسبان الى هذه القارة واقام الأولون على الساحل الأطلنطى لمراكش والأخيرون بالمناطق الساحلية لتونس والجزائر . وفى بداية القرن السادس عشر حلت الامبراطورية العثمانية محل الأسبان وتوطد الحكم التركى على افريقيا الشمالية باسرها .

وفى القرن الخامس عشر ايضا تحرك البرتغاليون نحو الجنوب متوغلين فى المناطق الاستوائية من القارة وحاولوا اقامة قواعد على طول ساحل غينيا الخ .

وبعد البرتغاليون استوطن الساحل الأمريكى الهولنديون والفرنسيون والانجليز وغيرهم من الاستعماريين الأوربيين الذين استغلوا السكان المحليين وحولوا التجارة الى وسيلة من وسائل السرقة المكشوفة . وادت المذابح التى ارتكبوها ضد سكان امريكا الأصليين فى القرن السادس عشر وازدياد المزارع الكبيرة فى ذلك الجزء من العالم الى تزايد الطلب على اعمال السخرة . ووجد المستعمرون اعمال السخرة هذه فى افريقيا . فاخذ مئات والوف من الشعب كأسرى وكبلوا بالحديد ونقلهم تجار الرقيق الى امريكا الشمالية والجنوبية والوسطى . وتبين التقديرات التى قام بها وليم دى بوا انه فى القرن السادس عشر تم ترحيل ٩٠٠ر٠٠٠ من العبيد الأفريقيين الى امريكا و ٢ر٧٥٠ر٠٠٠ فى القرن السابع عشر و ٧ مليون فى القرن الثامن عشر و ٤ مليون فى القرن التاسع عشر وجميعا تبلغ حوالى ١٥ مليونا بينما تقدر احصائيات اخرى العدد بعشرين مليونا .

وقد ذبح عدد كبير من الأفريقيين وهم يقاومون عملية اسرهم . ومات عدد اكبر من العناء والتعذيب اثناء الترحيل . وطبقا لما ذكره دى بوا فان كل عبد افريقى كان يجلب الى امريكا فان خمسة آخرون قتلوا فى افريقيا او ماتوا وهم فى طريقهم الى العالم الجديد . واثبت ان عمليات تجارة العبيد هذه قد حرمت افريقيا من ٦٠ مليون نسمة وذكر مؤرخون آخرون ارقاما اكبر .

وبلغت تجارة العبيد ذروتها حوالى القرن الثامن عشر .

وبمرور الزمن بدات القارة الأفريقية والمستعمرات فى اجزاء اخرى من العالم تكتسب اهمية جديدة . وبدات الدول الرأسمالية تتطلع الى المستعمرات كأسواق لبضائعها ومصدرا للعمل الرخيص والمواد الخام اللازمة لصناعاتها .

وفى عصر الامبرياليـة تحولت المستعمرات الى توابع للبـلدان الراسمالية الكبرى تمدها بالمنتجات الزراعية والمواد الخام واعتبرت ذات اهمية كقواعد عسكرية استراتيجية .

ومع الصراع فى سبيل المستعمرات تم تقسيم العالم الى مناطق فى نهاية القرن العشرين . ووقعت افريقيـا كلها ، التى استعمرت فى وقت متـأخر عن آسـيا وامريكا ، فى قبضة الدول الامبريالية التى أدت سياستها للقهر والاستغلال بالضرورة الى صراع حاد من جانب الشعوب المقهورة فى سبيل تحررهـا .

تكوين الأمم :

لقـد كان لتكوين العـلاقات الراسمالية اثرا كبيرا على التركيب الاجتماعى والسياسى لاوروبا . فتكوين الجماعات الوطنية باعتباره التشكيل التاريخى الذى تلى العائلة والقبيلة ـ هو عملية بدأت فى مرحلة تفكك نظام المشاعيه البدائية . وفى البلدان التى تطورت فيها علاقات ملكية العبيد ظهرت جماعات وطنية موازية لتكوين النظـام العبودى . وفى البـلدان التى مرت بالنظام العبودى ظهرت هـذه الجماعات مع تطور العلاقات الاقطاعية . وفى الوقت الذى استقرت فيه الاقطاعية ، اتخذت الجماعات الوطنية شكلا نهائيا فى كثير من البلدان الآسيوية والأفريقية .

وظهرت المتطلبات من اجل تكوين امم حديثة فقط فى مرحلة ظهور الراسمالية ، وكان اساس هـذه العملية التاريخية هو الوحـدة الاقتصادية والمركزية السياسية للدولة . فتقوية الروابط الاقتصادية بين مختلف اجزاء البلاد ادى الى ظهور لغة مشتركة وثقافة وطنية .

ولما كانت الأمم قد تكونت على أساس علاقات الانتاج الراسمالية وكانت الروابط الوطنية المتطورة برجوازية فى طابعهـــا فقد شملت الأمة جميع طبقات وفئات السكان ، ولكن حين احتلت البرجوازية السلطة الاقتصادية والسياسية فقد اكتسبت ايضا الأمة الناشئة طابعا بورجوازيا ونفس الشيء يمكن أن ينطبق على ايديولوجية الأمة الناشـــئة .

هـــذه العملية كانت مرتبطة بتدعيم البرجوازية التى بدات تأخـــذ شكلها الآن كطبقة مستغلة جديدة وواصلت تطورها جنبا الى جنب مع البروليتاريا وظلت علاقاتهما دائما عدائية .

الملكية المطلقة الاقطاعية :

ان تطور العلاقات الراسمالية قد وضع على عاتق الارستقراطية الاقطاعية مهمة اعادة تشكيل النظام السياسى لكى تحتفظ بسيطرتها الطبقية وكانت النتيجة لهذا هو ظهور الملكية المطلقة الاقطاعية .

لقد كانت الارستقراطية الاقطاعية ترغب قبل كل شيء فى الاستفادة من ازدياد الانتاج ولكنهم لم يستطيعوا تبين الخطر الذى كان مختفيـــا فى العلاقات الراسمالية المتطورة ومن ثم ايدوا البرجوازية الناشئة . وتطلبت العمليـــات الاقتصادية بعض الارتباط بين الارستقراطية الاقطاعية والبرجوازية وكان المركز المسيطر تحتله الأخيرة . ولم تكن الارستقراطية الاقطاعية قادرة بمفردها على أن تضع تحت اشرافها المشروعات الراسمالية التى تقع قرب الولايات الاقطاعية وتديرها فهذه المهمة لم يكن من الممكن تحقيقها الا بواسطة دولة اقطاعيـــة ذات اجهزة ادارية كبـــيرة . وعن طـــريق فرض الضرائب على المشروعات الراسمالية حصلت الطبقة الحاكمة على دخل هائل من

التجارة والصـــناعة النامية وعدا ذلك فقد كانت هنـــاك زيادة فى المصروفات للانفاق على الجيش والدولة وبالتالى فان جل اهتمام أمراء الاقطاع كان منصبا على زيادة ايراد الدولة والضرائب واتخذ الريع الاقطاعى مظهرا مركزا وشـاملا .

وادت المطالبة الاقتصـادية للطبقة الاقطاعية الى المزيد من تمركز البيروقراطية . وارتبطت هذه الحقيقة أيضا بتناقضات طبقية حادة لأن تزايد النفـــوذ الاقتصـــادى للبرجوازية كان محسوبا بتزايد استغلال الفلاحين وفقراء سكان المدن . ولذا فقـــد كان الهـــدف الأســاسى للدولة المطلقة الاقطاعية هو قمع سخط الجماهير . ففى انجلترا سحقت ثوار الفلاحين الذين كانوا قد طردوا من أرضهم . وفى روســـيا لم ينجح سوى الاشراف فى قمع الثورة العنيفة التى قادهـــا ايميليان بوجاشـوف فى القرن الثامن عشر .

ثقافة وايديولوجية عصر النهضة :

ان تطور العـــلاقات الرأسمالية فى المدن الايطاليـــة فى القرنين الرابع عشر قد ساعد على نشوء ظواهر أيديولوجية جديدة خلقت ثقافة برجوازية جديدة عرفت بعصر النهضة .

فالأيديولوجيون البرجوازيون الأوائل كانوا مقتنعون بانهم يعملون على « احياء » الثقافة القديمـــة .

واثار ظهور الانتاج الرأسمالى اهتماما كبيرا بدراسة الظواهر الطبيعية وأدى هذا الى التطور السريع للتكنولوجيا والعلوم الطبيعية فى أواخر القرن الخامس عشر .

وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر حدثت تغيرات جذرية فى تطور العلوم الطبيعية وقوبلت العقائد الدينيـــة الجامدة فى أوربا بمعارضة من جانب البحث التجريبى ، وكان أهم تقـــدم ضخم تحقق فى هذه الأيام هو اكتشـاف القوانين الطبيعية. فقد سارت الاكتشافات العلمية جنبا الى جنب مع صراع مستمر ضـــد المظهر الكاثوليكى الاقطاعى القديم ونشأت فلسفة جديدة تطرقت الى كافة مجالات حياة الانسان الروحية ــ العلوم والآداب والفنون . وكان هـــذا اعظم غليان تقدمى عرفه العالم .

وانجب عصر النهضة كثير من عظماء الرجال نستطيع ان نذكر من بينهم ليوناردو دى فينشى (١٤٥٢ ــ ١٥١٩) الرسام العظيم والرياضى والمهندس ميخائيل انجلوا بوناروتى (١٤٧٥ ــ ١٥٦٤) الرسام والنحات ، والرسامين رفائيل (١٤٨٣ ــ ١٥٢٠) وتتيان (١٤٧٧ ــ ١٥٧٦) والشاعر بودوفيجو أريوستو (١٤٧٤ ــ ١٥٣٣) وغيرهم ممن احتلوا مكانة هامة فى عالم الثقافة .

وأصبح جوهر الاتجاهات الايديولوجية الجديدة فى عصر النهضة يعرف «بالنزعة الانسانية» وكان المدافعون عن هذه الآراء يركزون على المطابع الدنيوى للثقافة الجديدة وتحـــررها من الاستبداد الروحى للاقطاع والكنيسة . كمـــا يعلق الانسانيون أهمية خاصة على قيمة الفرد الانسانية .

ولكن لمـــا كان الانسانيون هم المدافعون عن النظام الرأسمالى الناشىء فانهم اتجهوا الى تخليد التطرف فى نزعة الفرد الى التحرر غبة الجماعة والرغبة فى تحقيق النجاح الشخصى بأية وســـائل ممكنة وبعبارة أخرى فان مثلهم كان هو النجاح البرجوازى . وهذا ما يجعل « الانسانية » البرجوازية تختلف عن الانسانية الحقيقية العالمية كما تنادى بهـــا الطبقة العاملة .

عصر الاصـــلاح :

ان البورجوازية بوصفها طبقة مستقلة لا يمكنها وهى تعـــارض الديانة الكاثوليكية كأساس ايديولوجى للمجتمع الاقطاعى ان تتخلى عن المفاهيم الدينية جميعها ولهذا فهى لا تؤيد الغاء الكنيسة والدين الغاءا تاما بل اصلاحهما واحلال البروستانتية محل الكاثوليكية لكونهما تناسب بشكل أفضل مصالح وافكار البرجوازية الناشئة .

والعقائد والطقوس التى قررتهـــا الكنيسة الكاثوليكية على مر القرون كانت تقوم على اساس خداع جماهير المؤمنين وجهلهم وتعتمد على التباهى بالتقوى سطحيا ، الأمر الذى كان يتفق اتفاقا كاملا واهـــداف الطبقة الاقطاعية الحاكمة لتبقى على الجمـــاهير فى حالة من الخضوع .

ان تطور الانتاج السلعى وظهور العلاقات الراسمالية بعد ذلك كانا مصحوبين بتحرر الفلاحين من العبودية بنمو سكان المـــدن ورفع مستواها الثقافى . هذه الظروف التاريخية أجبرت البورجوازية النامية على التفكير فى عقـــائد اكثر تعقيدا والتدبر فى أساليب اكثر ملاءمة لتسميم أذهان الجماهير من تلك التى كانت تستخدمهـــا الكنيســـة الكاثوليكية بشر الاصلاحيون بالتعاليم الجديدة التى نقلت التقوى الكلثوليكية بشر الاصلاحيون بالتعاليم الجديدة التى نقلت التقوى الى العالم الداخلى للفرد . وتبسطت الطقوس الى الحـــد المقبول وقدمت الطلبات من أجل ازالة الأثاث والملحقات الثمينـــة وتاسيس ما يسمى بالكنيسة « الرخيصة » .

والمبدأ الرئيسى للبروتستينية كان مطابقة دقيقة نصـــا وروحـــا للكتاب المقدس الذى اعتبره البروتستانت المصدر الوحيد للاعتراف بالحق ، ونقض مبدأ تنزه البابا عن الخطـــأ فى مسائل الايمان .

وكانت المانيا موطن حركة الاصلاح . وكانت الأخيرة وحرب الفلاحين الكبرى التى حدثت ١٥٢٤ — ٢٥ أول المعارك الرئيسية بين البرجوازية والنظام الاقطاعى وعبرت عن نشوب أول ثورة برجوازية فى أوروبا .

والبروتستانتية فى شكلها الكلاسيكى تجسدت فى تعاليم جان كلفن وهو مبشر من سويسرا وقد قال بأن مصير البشر قد سبق أن تقرر قبل أن يخلق الله العالم بزمن طويل (عقيدة الاختيار السابق المقدسة) ومن ثم فالمرء يستطيع أن يثبت أنه من الذين اختارهم الله فقط بواسطة النجاح الذى يحققه فى مشروعاته المهنية . وبشر كلفن بأن الهدف الأساسى للتاجر ورب العمل ينبغى أن يكون زيادة ثروتهم التى استؤمنوا عليها من قبل الله . وبناءا على ذلك فاستغلال العمال الاجراء كان يعتبر فى رأى كلفن والتعاليم البروتستانتية التى جاءت بعد ذلك قضية عادلة .

وانتشرت البروتستانتية فى البلدان الأوروبية التى كان الانتاج الرأسمالى فيها يزداد بسرعة .

الثورة البرجوازية فى الأراضى الواطئة فى القرن السادس عشر :

لم تستطع التناقضات المتزايدة بين القوى الانتاجية النامية وعلاقات الانتاج المتفسخة للنظام الاقطاعى أن تؤدى الى اقامة علاقات رأسمالية جديدة نهائية دون تحطيم الهيئات السياسية وأولا وقبل كل شىء نظام الدولة الاقطاعية . ولكن هذه التغيرات لم يكن من الممكن تحقيقها عن طريق الثورة قانونا موضوعيا للتقدم الاجتماعى .

وبعد عصر الاصلاح وثورة الفلاحين فى المانيا وهى أول محاولة نحو ثورة برجوازية قد انتهت بالفشل ، وكانت المحاولة الثانية وهى

التى قامت فى الأراضى المنخفضة (١٥٦٦ ــ ١٦٠٩) التى اتخذت شكل حرب تحررية وطنية ضد الحكم الأسبانى .

ورغم الطبيعة التقدمية للثورة فى الأراضى المنخفضة ولجميع القرارات التى أعقبتها فانها لم تلغ الاستغلال ولكنها احلت الاستغلال الراسمالى محل الاستغلال الاقطاعى .

وكانت هذه هى أول ثورة برجوازية ناجحة ، ولكن الفضل فى نجاحها يرجع الى الجماهير الشعبية غير ان اثرها على زيادة تطور العلاقات الراسمالية فى أوروبا كان ذو طابع محدود . والثورة البرجوازية فى انجلترا فى منتصف القرن السادس عشر والثورة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر ، بالذات ، هما اللذان افتتحا العصر البرجوازى بكل معانى الكلمة .

خاتمـــة

وكما رأينـــا ، فان المجتمع الانسانى يتطور كنتيجة لحلول كيان اقتصادى ـــ اجتماعى أكثر تقـــدما محل آخر ، وينطوى تحت كل كيـــان ، نموذج تاريخى محـــدد للمجتمع بعـــلاقاته الاقتصـــــادية والاجتماعية ، وبمســـتوى تطور قواه الانتاجيـــة ، وبمؤسساته السياسية والأيديولوجية .

وبانهيـــار المجتمعات البدائية ، ظهر الانقسام الى طبقات فى لمجتمع ، مجموعات اجتماعية كبيرة ، احداها تمتلك وسائل وأدوات لانتـــاج والأخرى لا تمتلك شيئا .

ومن ثم ، فقد مكنت الملكية الخاصة لوسائل الانتاج لاحـــدى اتين المجموعتين من استغـــلال الجماعة الأخـــرى ، التى كانت محرومة من ملكية هذه الوسائل ، ومكنتها أيضا من أن يستحوذوا لمسهم على نتـــاج عمل الآخـــرين . وهـــكذا ظهرت الطبقتان ساسيتان فى مجتمع الملكية العبودية ، العبيد وملاك العبيد .

وادى تطور القوى الانتاجية ، الذى يشـــكل القوة الدافعة لكل ـــدم انسانى ، الى الالغاء الثورى للكيان القـــائم على الملكية بودية ، وأن يحل محله النظام الاقطاعى . ومهما يكن ، فقـــد ، المجتمع الاقطاعى الجديد ، قائم هو الآخر على استغـــلال سعب العـــامل ، استغلال الفلاحين والحرفيين بواسطة ملاك اضى الاقطاعيين .

ثم اقبلت الثورات البورجوازية التى قضت على الاقطـــاع ،

ولكنها واصلت عمليـــة استغلال الشعب العامل الذى كان قد لعب الدور الحاسم فى الغـــاء النظام الاقطاعى .

غير أن آفاق تحرير الجماهير العـــاملة اتخذت منحى مختلف . فلقـــد فتحت الثورة البورجوازية امام الرأسماليـــة . وتهيـــأت الظروف لاضطراد تطورها ، ولتغيرات اقتصادية تقدمية . ويكفى جوهر هـــذه التغيرات فى التحول من العمل اليدوى الى الانتـــاج الآلى ، من الطور الأول للرأسمالية ـــ الصناعة اليدوية الى طور أعلى من الرأسمالية الصناعية ـــ الصناعة الآلية .

وكان هذا هو ثورة صناعية حقة ، لا ترتبط فقط بنهوض القوى الانتاجية بل أيضا بالتغيرات الجذرية فى النظام الاجتماعى كله .

ولقـــد ذكرنا آنفـــا بأن ظهور الطبقة الرسمالية ـــ البورجوازية ادى الى ظهور نقيضها ـــ الطبقة العاملة ، البروليتاريا . وينعكس التناقض بين الطابع الاجتماعى للانتاج والطابع الفردى للملكية فى التناقض العدائى بين الطبقة العاملة والبورجوازية ، ذلك التناقض الذى اصبح التناقض الرئيسى فى المجتمع البورجوازى .

وازداد استغلال العمـــال ، فقد اصبحوا جزءا من الآلات ذاتهـــا وانحدرت اجورهم ، واتسع استخدام النساء والأطفال كمصـــدر من مصـــادر قوة العمل الرخيصة ، وحتى الأطفال اجبروا على العمل ١٤ ـــ ١٨ ساعة يوميا حتى يصيبهم الانهاك التـــام .

وجلبت الثورة الصناعية وتطور الرأســـمالية الصـــناعية التى صاحبهـــا تغيرات جذرية فى علاقات القوى الطبقية فى تلك البلدان التى حلت بهـــا الثورة ، وادى التقدم الصـــناعى الى تطور متزايد

للبروليتاريا التى كانت قد ابتدأت فى ممارسة تأثير متزايد على مجرى الحوادث السياسية . ومع ذلك ، فالبروليتاريا لم تلعب دورا مستقلا خلال المرحلة الأولى من التطور الراسمالى ، فقد كانت طبقة لم تكن قد وعت بعد مصالحها الطبقية الخاصة ، « طبقة فى ذاتها » ، وان أصبحت أخيرا « طبقة لذاتها » على استعداد لخوض المعارك من أجل مصالحها ضد البورجوازية .

وبالتدريج اتخذت حركة الطبقة العاملة ضد الاستغلال الراسمالى طابعا حادا متزايدا .

فالبورجوازية التى كانت منذ زمن بعيد ، قد تشكلت فى طبقة واعية بمصالحها الطبقية ، قد أصبحت الآن مواجهة بالبروليتاريا الصناعية التى كانت على أهبة الاستعداد لشن نضال نشط لتحسين ظروف حياتها الطبقية وظهر الاشتراكيون الطوبويون الحالمون بنظام اجتماعى أفضل ودفعوا الى السطح بالأفكار الاشتراكية .

غير أن حركة الطبقة العاملة من ناحية والاشتراكية من الناحية الأخرى ، لم يكونا على اتصال فيما بينهما . فلقد كانت حركة الطبقة العاملة تلقائية وكذلك فان الاشتراكيين الخياليين ، لم تكن لهم أية معرفة علمية عن تطور المجتمع الانسانى ، ومن ثم فلم يكن مقدورهم أن يشربوا الحركة الثورية للبروليتاريا — بالوعى السياسى . ولقد انجز هذه المهمة التاريخية العظيمة الثوريان العظيمان وعباقرة الفكر العلمى كارل ماركس وفردريك انجلز .

وكانت نظرتهم الثورية الجديدة للعالم مبنية على أساس من الدراسة العميقة لتاريخ العالم ، وخبرة الصراع الطبقى بالتحديد ، الى تعميم لخبرة لحركة الطبقة العاملة والحركة الاشتراكية .

واستفادت الماركسية من كل ما هو قيم وثمين فى تطور الفكر والثقافة الانسانية واصبحت الوريث الشرعى لكل منجزات الانسانية. والماركسية لم يقتصر دورها على مجرد مواصلة او تحسين التعاليم الفلسفية والاقتصادية والاشتراكية التى سبقتها ، بل انها خلقت ثورة حقة فى كلا المجالين العلمى والاجتماعى .

وجمع ماركس وانجلز بين عملهما النظرى مع النضال العملى من اجل تاسيس حزب بروليتارى ثورى .

وتوج هذا العمل بتأسيس العصبة الشيوعية فى عام ١٨٤٧ والدولية الأولى فى عام ١٨٦٤ .

وكان لنشاط الأعضاء الفرنسيين فى الدولية الأولى ، تأثير كبير على تطور المبادرة الثورية للطبقة العاملة الفرنسية . وادى هذا الى وقوع الأحداث التاريخية فى مارس ١٨٧١ . ففى ١٨ مارس ١٨٧١ ، انتقلت سلطة الدولة الى ايدى الطبقة العاملة لأول مرة فى تاريخ الانسانية . وكان تاسيس كوميون باريس بالرغم أن عمره لم يمتد أكثر من ٧٢ يوما ، هو التجربة الأولى لدكتاتورية البروليتاريا واثرى التعاليم الثورية لماركس وانجلز .

وافتتح كوميون باريس مرحلة تاريخية جديدة . فبحلول السبعينيات كان النظام الرأسمالى قد ظهر على نطاق عالمى .

وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ابتدأت القوى الانتاجية فى التطور بسرعة هائلة . واحتل الانتاج الأهمية الأولى وبرزت الصناعة الآلية الى المقدمة . وادخلت الكهرباء كمصدر رخيص للطاقة فى الصناعة والنقل .

غير أن القوى الانتاجيـــة النامية دخلت بسرعة فى تناقض مع علاقات الانتاج الرأسمالية ، التى كانت تعوق التقـــدم الانسانى . وبلغ استغلال الطبقـــة العاملة فى البـــلدان الكبيرة وكذلك القهر الاستعمارى والقومى الى أقصى مداه . وأنتج فقر جماهير الشعب تناقضا صارخـــا مع ثراء وفخفخة الطبقـــات الحاكمة . ودخلت الرأسمالية الى أعلى وختـــام مراحل تطورها ـــ مرحلة الامبريالية .

وأدى التطور الاقتصـــادى غير المتوازى للبـــلدان الرأسمالية فى مرحلة الامبريالية الى زيادة حـــدة التناقضات فيمـــا بينها . وكانت الحرب العالمية الأولى هى النتاج الطبيعى لهـــذا التناقض الذى بلغ ذروته فى الأزمة العـــامة للنظام الرأسمالى بأكمله .

وقوبلت السياسة الرجعية للامبرياليين بالنضـــال الثورى من جانب الطبقة العـــاملة . وأدت سيادة الماركسية فى حركة الطبقة العاملة العـــالمية الى زيادة حـــدة الصراع الذى تشنه الجماهير العـــاملة .

وانتقل مركز الحركة الثورية العالمية الى روسيا حيث كان اول حزب ماركسى ثورى قد تشكل بقيادة فلاديمير ايليتش لنين الخليفـــة العبقرى لمـــاركس وانجلز . وقاد حزب لينين ثورة أكتوبر ١٩١٧ الاشتراكية التى أقامت دكتاتورية البروليتاريا وأحلت الطبقة العاملة فى السلطة .

وفتحت الثورة ثغرة فى جبهة الامبريالية العالمية وافتتحت عصرا جديدا فى تاريخ الانسانية ـــ عصر حلول الاشتراكية محل الرأسمالية عصر الغـــاء النظام الاستعمارى المشـــين ، العصر الذى سيضع نهاية لكل الحروب الدموية الغير انسانية التى تولدها الامبريالية .

انتهى

فهرست

الموضـــوع	صفحة
تقـــديم	٣
الفصل الأول ــ المجتمع البـــدائى	١٤
١ ــ تكوين المجتمع البـــدائى ...	١٤
٢ ــ العصر الذهبى للمجتمع البدائى ...	٢١
٣ ــ تحلل النظام المشاعى البدائى ...	٢٧
الفصل الثانى ــ مجتمع ملاك العبيد	٣٥
١ ــ مجتمعات ملاك العبيد فى آســيا وأفريقيــا	٣٥
٢ ــ النظام العبودى فى اليونان القديمة	٦٤
٣ ــ القسمات الأساسية للنظام العبودى فى روما القديمــة	٦٩
الفصل الثالث ــ المجتمع الاقطاعى	٨٧
١ ــ بداية العــلاقات الاقطاعية ...	٨٨
٢ ــ عصر الاقطاعية المتطورة	١٠٣
٣ ــ مرحلة تفكك الاقطــاع (نشــأة الرأسمالية	١٢٢
خاتمـــة	١٣٩

الشركة المصرية للطبـــاعة

(حسن مدكور وأولاده)

٣٠ شارع عبد الخالق ثروت بالقـــاهرة

تليفون ٥١٠٥٧١ ـ ٩٠٦٥٧١

في هـــذا الكتاب :

دراسة جادة بمفهوم الاشتراكية العلميـــة لكل من :

١ ــ المجتمع البـــدائى ، تكوينـــه ، عصره الذهبى وتحلله .

٢ ــ مجتمع ملاك العبيد فى آســـيا وافريقيا والنظام العبودى الأغريقى والرومانى.

٣ ــ المجتمع الاقطاعى ، ظهوره ، وتطوره وتفككه ايذانا بنشأة الرأسمالية .

Bibliotheca Alexandrina
0245745

دار يوليو للنشر

٣٢ شارع صبرى أبوعـــلم ت : ٤٧١٨٤
القـــاهـــرة - ج.ع.م

الثمن ١٠

مطابع مدكور وأولاده بالقاهرة ت : ٥١٥٧١